حين يهتَدي القلب إلى الله

تأليف
ظلال حسن فتحي

حين يهتدي القلب الى الله

الإهداء

إلى كلِّ قلبٍ أضناه التيه، فلم يجد ملاذًا إلا الله، وإلى كلِّ روحٍ أيقنت أن النور لا يُلتمس إلا من هديه، وأن النجاة لا تكون إلا في ظلال رحمته أُهدي هذا العمل ابتغاءَ وجهِ الله تعالى، راجيًا أن يجعله نورًا في القلوب، وحُجَّةً لنا لا علينا، وزادًا إلى يومٍ لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم.

المقدمة

الحمد لله الأوَّلِ بلا ابتداء، والآخرِ بلا انتهاء، مُبدِعِ السماواتِ والأرض، ومُجري الأقدار بحكمته، ومُقلِّب القلوب برحمته، له الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم

وإليه تُرجعون. والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ ﷺ، خيرِ من دلَّ على الحق، وبلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، وترك أمته على المحجة البيضاء، لا يزيغ عنها إلا هالك.

أما بعد...

فما من إنسانٍ وطئت قدماه هذه الأرض إلا وحمل في أعماقه سؤالًا يرافقه منذ أول وعيه: من أين كانت البداية؟ ولماذا خُلقت؟ وإلى أين المصير؟ ولئن تعددت أجوبة البشر، واختلفت تصوراتهم، فإن الوحي الإلهي جاء بالحق الذي لا يتبدل، واليقين الذي لا تعتريه الظنون، فقصَّ علينا خبر البداية، وأرشدنا إلى الغاية، ورسم لنا طريق النجاة وليس هذا الكتاب سردًا لأحداثٍ مضت وانقضت، ولا جمعًا لقصصٍ تُقرأ للتسلية، وإنما هو رحلةٌ تمتد من بدء الخلق إلى واقع الإنسان، تُستضاء فيها آياتُ القرآن الكريم، وتستنير بهدي السنة النبوية الصحيحة، وتُستحضر منها العِبر التي تُحيي القلوب، وتُقوّم العقول، وتُصلح السلوك وقد حُرِّر هذا الكتاب على منهجٍ يقوم على الاستدلال بالقرآن الكريم، والاستناد إلى الأحاديث الصحيحة، وسرد الوقائع الثابتة، وربطها بما يشهده الإنسان في نفسه وحياته، مع الاستئناس بما ثبت من الحقائق العلمية في الطب وعلم النفس، دون تكلفٍ أو مجازفة، إذ يبقى الوحي هو الأصل الذي تُوزن به المعارف، وتُهتدى به العقول فإن وجدتَ في هذه الصفحات ما يزيد يقينك، ويقوّي صلتك بربك، ويبعث في قلبك نورًا، فذلك من فضل الله وحده، وإن كان غير ذلك، فالكمال لله وحده، وكلُّ ابن آدم خطّاء ونسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به قارئه وكاتبه، وأن يجعله نورًا في الدنيا، وذخرًا يوم يقوم الناس لرب العالمين.

الفصل الأول

قبل أن يُخلق الإنسان... حين كانت البداية بأمر الله

«﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾

«"حين لم يكن على الأرض بشرٌ يسير، ولم يكن في الكون صوتُ إنسانٍ يدعو أو يناجي، كان الملك لله وحده، كما هو اليوم، وكما سيكون إلى الأبد."»

لم تبدأ الحكاية بآدم عليه السلام، ولم تبدأ بالأرض التي نمشي عليها، ولا بالسماء التي تظلنا، بل بدأت بإرادة الله سبحانه وتعالى؛ إرادةٍ لا يعجزها شيء، ولا يسبقها زمان، ولا يحدها مكان. فهو سبحانه الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء ليس التاريخ الحق هو ما دوَّنه البشر في ألواحهم، ولا ما حفظته الحضارات في نقوشها، بل التاريخ الحق هو ما أخبر به خالق الزمان والمكان. فما كان قبل الإنسان لم يشهده بشر، ولم تدركه عين، ولم يبلغه عقل بتجربة، وإنما علمه عند الله، وقد أطلع منه رسله على ما شاء؛ ليكون نورًا للعقول، وهدايةً للقلوب، وحجةً على العالمين لقد اعتاد الإنسان أن يسأل: متى بدأت الحياة؟ وكيف نشأ الكون؟ ومن أين جاءت الخليقة؟ غير أن الوحي الإلهي يوجّه السؤال إلى ما هو أعظم من ذلك: لِمَ خُلِق هذا الكون؟ ولماذا خُلق الإنسان؟ فمعرفة الغاية أعظم أثرًا من معرفة البداية، وإذا عرف الإنسان غايته، استقامت حياته، واطمأن قلبه، وأبصر طريقه.

لم يكن الكون يومًا وليد المصادفة، ولا نتيجة فوضى عمياء، بل خُلق بعلمٍ محيط، وقدرةٍ نافذة، وحكمةٍ بالغة. فلا ذرة تتحرك إلا بإذنه، ولا نجم يسير إلا بأمره، ولا حياة تنبض إلا بمشيئته. وكلما اتسعت معارف الإنسان في الفلك، وتأمل في المجرات التي لا يحصيها عد، والنجوم التي تبعد ملايين السنين الضوئية، ازداد يقينًا بأن هذا الإتقان لا يمكن أن يكون من صنع العبث، بل يدل على خالقٍ عظيم، أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا.

الدليل من القرآن«﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[الزمر: ٦٢]»

«﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[الحديد: ٣]»

«﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[الأنبياء: ٣٠]»

الدليل من السنة

عن رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«««كان الله ولم يكن شيء غيره...»»» رواه ، وهو حديث صحيح.

ويرسخ هذا الحديث في قلب المؤمن أن الله سبحانه وتعالى هو الأول، وأن جميع المخلوقات حادثة بعد أن لم تكن، وأن وجودها قائم على إرادته وحكمته، فلا يشاركه أحد في الأزل، ولا في الملك، ولا في تدبير الكون.

قصة

كان الصحابة رضي الله عنهم أشد الناس حرصًا على طلب العلم، ولم تكن أسئلتهم جدلًا ولا تعنتًا، بل رغبةً صادقة في معرفة الحق. فجاء وفدٌ إلى رسول الله ﷺ وقالوا: "يا رسول الله، جئناك لنتفقه في الدين، ونسألك عن أول هذا الأمر."

فأجابهم النبي ﷺ بما أوحى الله إليه، فبيّن أن الله كان قبل كل شيء، وأن كل ما في هذا الكون إنما هو خلقه وتقديره، ليغرس في نفوسهم أصل العقيدة، وهو أن القلب لا ينبغي أن يتعلق إلا بالخالق، وأن الأسباب مهما عظمت تبقى مخلوقة، أما المدبر فهو الله وحده.

وهكذا علّم النبي ﷺ أمته أن أعظم العلوم ليست معرفة أسرار الكون، وإنما معرفة رب الكون، لأن من عرف الله، هانت عليه الدنيا، واستقام طريقه، واطمأن قلبه.بين الإيمان والعلم

كلما ازداد الإنسان اكتشافًا لأسرار الكون، ازداد وقوفًا أمام حقيقةٍ لا يستطيع إنكارها؛ أن هذا النظام البديع لا يقوم على العبث، وأن هذا الاتساق المذهل لا تصنعه المصادفة. فالعلم يكشف القوانين، لكنه لا يخلقها، ويصف الظواهر، لكنه لا يفسر الغاية من وجودها.

لقد أثبتت الدراسات الحديثة أن الكون قائم على ثوابت فيزيائية دقيقة للغاية، وأن أي تغير يسير في بعضها كان كفيلًا بعدم تشكل النجوم والكواكب، واستحالة وجود الحياة بالشكل الذي نعرفه. وهذه الحقائق لا تُثبت صدق القرآن، فالقرآن حقٌّ من عند الله قبل أن يعرف الإنسان شيئًا من أسرار الكون، لكنها تزيد المؤمن يقينًا، وتدعو المتأمل إلى التفكر في عظمة الخالق وإحكام صنعه.

ولذلك لم يكن القرآن كتابًا يدعو إلى تعطيل العقل، بل إلى إعماله في موضعه الصحيح؛ فكلما ازداد الإنسان نظرًا في آيات الكون، ازداد معرفةً بقدرة الله، وكلما ازداد معرفةً بربه، ازداد تواضعًا لنفسه.

الإنسان المعاصر

ورغم هذا التقدم العلمي الهائل، ما زال الإنسان يعيش صراعًا داخليًا لا تحله التكنولوجيا، ولا تُسكته الأموال، ولا تملؤه الشهرة. فقد يبلغ الإنسان أقصى درجات النجاح، لكنه يبقى يشعر بفراغٍ يسكن أعماقه، لأن القلب لا يكتفي بما تشبعه المادة، وإنما يفتقر إلى ما يحييه الإيمان.

إن الإنسان حين ينسى خالقه، يضيع في كثرة الأسئلة، وحين يعرف ربه، تتضح له الغاية، ويصبح لكل خطوة في حياته معنى، ولكل ابتلاء حكمة، ولكل نعمة شكر.

بين الإيمان وعلم النفس

يؤكد علم النفس الحديث أن امتلاك الإنسان لمعنى واضح في حياته يسهم في تعزيز الصمود النفسي، ويخفف من مشاعر القلق والاضطراب، ويزيد قدرته على مواجهة الشدائد. والإسلام لم يترك الإنسان يبحث عن هذا المعنى بنفسه، بل بيّن له منذ البداية أنه مخلوق لعبادة الله، وأن حياته ليست رحلةً عابرة بلا مقصد، وإنما أمانة ورسالة واستخلاف.

كما تشير الأبحاث الطبية إلى أن الضغوط النفسية المزمنة تؤثر في صحة القلب، والمناعة، والنوم، وجودة الحياة، وأن الطمأنينة والسكينة النفسية تسهم في تحسين الصحة العامة. والمؤمن يجد أعظم أسباب السكينة في يقينه بربه، وثقته بقضائه، وحسن توكله عليه، مع الأخذ بالأسباب المشروعة.

رسالة الفصل

قبل أن تبحث عن مكانك في هذا العالم، اعرف من خلق العالم.

وقبل أن تسأل: ماذا أريد أن أكون؟ اسأل نفسك: لماذا خلقني الله؟

فإن من عرف البداية على حقيقتها، أدرك النهاية على بصيرة، ومن امتلأ قلبه بعظمة الخالق، صغرت في عينه الدنيا بما فيها، وأصبح يرى في كل نعمة دليلًا على رحمة الله، وفي كل ابتلاء بابًا إلى حكمته، وفي كل آية من آيات الكون دعوةً إلى معرفته.

وقفات

- إذا عرفت الله، استقام ما بعده.

- ليست العبرة بطول العمر، وإنما بحسن السير إلى الله.

- كل معرفةٍ لا تقود إلى تعظيم الخالق، تبقى معرفةً ناقصة.

- كلما ازداد القلب يقينًا بالله، قلَّ خوفه مما سواه.

- بداية الهداية ليست حين تقرأ كثيرًا، بل حين تعرف ربك حق المعرفة.

تمهيد للفصل الثاني

وإذا كان الله سبحانه هو خالق كل شيء، فإن أول الطريق إلى فهم قصة الإنسان هو أن نتعرف على ما أخبرنا به الوحي عن أوائل المخلوقات، دون زيادة ولا نقصان، ودون أن نتجاوز ما سكت عنه القرآن والسنة.

وفي الفصل القادم، نبدأ أولى محطات هذه الرحلة المباركة، لنتأمل ما ثبت في النصوص الصحيحة عن بداية الخلق، وكيف هيأ الله سبحانه هذا الكون قبل أن يخلق آدم عليه السلام، لتتضح لنا عظمة التدبير الإلهي، وندرك أن الإنسان لم يوجد عبثًا، وإنما خُلق لحكمة عظيمة ورسالة خالدة.

الفصل الثاني

أول ما أخبرنا به الوحي... بداية الخلق

«﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

[الحديد: ٣]»

ما أعظم أن يقف الإنسان عند بداية الخلق، لا ليُشبع فضوله، بل ليزداد معرفةً بربه. فالعقل البشري يقف عاجزًا أمام الغيب، ولا سبيل إليه إلا بخبرٍ صادق من الله تعالى أو من رسوله ﷺ. ولهذا كان الوحي هو المصدر الوحيد الذي نستضيء به حين نتحدث عن أول الخلق.

لقد أخبرنا النبي ﷺ أن الله سبحانه وتعالى كتب مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرض، وأن كل ما يجري في هذا الكون إنما يقع بعلمه وإرادته وحكمته، فلا حادثة تقع مصادفة، ولا قدر ينزل عبثًا، بل كل شيء عنده بمقدار.

الدليل من القرآن«﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر: ٤٩]»

«﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾[الحديد: ٢٢]»

الدليل من السنة

قال رسول الله ﷺ:«إنَّ اللهَ كتب مقاديرَ الخلائقِ قبل أن يخلق السماواتِ والأرضَ بخمسين ألف سنة، وكان عرشُه على الماء.»

رواه ، وهو حديث صحيح.

كما قال ﷺ:«إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب. قال: رب، وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة.»

رواه و، وصححه عدد من أهل العلم.

ومن هنا ندرك أن الكون لم يُخلق اعتباطًا، وأن حياة الإنسان ليست صفحةً بيضاء تُكتب بلا علم من الله، بل كل شيء داخل في علمه الأزلي، مع بقاء مسؤولية الإنسان عن اختياره وعمله.

قصة

كان رضي الله عنهما غلامًا صغيرًا، فأردفه النبي ﷺ خلفه يومًا، ثم قال له كلمات أصبحت من أعظم ما رُوي في باب الإيمان بالقدر:

«««يا غلام، إني أعلِّمك كلمات: احفظ الله يحفظك... واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك...»»»

فنشأ ابن عباس على يقينٍ راسخ بأن تدبير الله سابق لكل تدبير، وأن القلب إذا امتلأ بالإيمان بالقدر، زال عنه خوف الناس، وتعلّق برب الناس.

خلق السماوات والأرض

بعد أن أخبرنا الوحي أن كل شيء جارٍ بقدر الله، وجَّه القرآن أنظارنا إلى هذا الكون العظيم، لا لنقف عند جماله فحسب، بل لنتأمل دقة صنعه وعظمة خالقه. فالسماء التي تعلو بلا عمدٍ نراها، والأرض التي استقرت عليها الحياة، والليل الذي يسكن فيه الخلق، والنهار الذي تنتظم فيه أعمالهم؛ كلها آيات تنطق بوحدانية الله وقدرته.لم يكن خلق السماوات والأرض حدثًا عشوائيًا، وإنما جرى وفق حكمةٍ وإرادةٍ وتقدير، كما أخبر الله تعالى في كتابه العزيز.

الدليل من القرآن

«﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾[الأعراف: ٥٤]»

«﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[الرعد: ٢]»

«﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[النمل: ٨٨]»

بين الإيمان والعلم

كلما تقدم الإنسان في دراسة الكون، اكتشف أن ما يراه ليس إلا جزءًا يسيرًا من هذا العالم الفسيح. فالمجرات تمتد على مسافات هائلة، والنجوم تسير في نظام بالغ الدقة، والقوانين التي تحكم الكون ثابتة على نحو يسمح باستمرار الحياة.

وهذه الحقائق لا تزيد المؤمن إلا يقينًا بأن الإتقان يدل على الحكمة، وأن النظام يدل على المدبر. وليس المقصود أن نبحث في القرآن عن النظريات العلمية، وإنما أن نجعل العلم وسيلةً للتفكر، كما أمر الله تعالى، لأن الوحي يهدي الإنسان إلى الغاية، والعلم يكشف له بعض سنن الله في خلقه.

أثر الإيمان في النفس

حين يؤمن الإنسان أن الكون كله بيد الله، وأن كل شيء يجري بعلمه وتقديره، يهدأ قلبه أمام الأحداث، فلا يغتر عند النعمة، ولا ييأس عند البلاء، لأنه يعلم أن وراء كل قدر حكمة، وإن خفيت عليه ولهذا فإن الإيمان الصحيح لا يصنع إنسانًا ضعيفًا، بل يصنع نفسًا مطمئنة، قادرة على الصبر، ثابتة أمام الشدائد، موقنة بأن الله لا يقدر لعباده إلا ما فيه الخير، وإن تأخر فهمه.

رسالة الفصل

إن أول ما ينبغي أن يتعلمه الإنسان ليس أسماء النجوم، ولا عدد المجرات، بل أن يعرف خالق النجوم ورب المجرات فإذا امتلأ القلب بمعرفة الله، صار النظر إلى الكون عبادة، والتفكر فيه زيادةً في الإيمان، وأصبح كل مشهد في هذا العالم يذكّر العبد بعظمة خالقه، لا بعظمة نفسه.

تمهيد للفصل الثالث

وبعد أن هيأ الله هذا الكون بحكمته، جاءت مرحلة أخرى من مراحل الخلق، خلقُ مخلوقاتٍ لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، ومخلوقاتٍ أخرى مُنحت الاختيار، لتبدأ بذلك قصة الطاعة والمعصية، والخير والشر.

وفي الفصل القادم نتعرف إلى خلق الملائكة والجن كما أخبرنا القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، لنفهم كيف بدأت أولى ملامح الصراع بين الطاعة والاستكبار قبل خلق آدم عليه السلام.

الفصل الثالث

حين امتلأت السماء بالطاعة... خَلْقُ الملائكة والجن

«﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[فاطر: ١]»

قبل أن يسمع الكون أول نداءٍ لآدم، وقبل أن تُعرف الأرض بساكنيها، كانت السماوات عامرةً بخلقٍ عظيم لا يعرف التردد، ولا يميل إلى المعصية، ولا يسبق أمر الله برأيٍ أو هوى. كانت الملائكة تسبح بحمد ربها آناء الليل وأطراف النهار، لا يعتريها ملل، ولا يداخلها كبر، ولا تعرف إلا الطاعة الخالصة.

وفي عالمٍ آخر، خلق الله الجن من نار، وجعل لهم إرادةً واختيارًا، فمنهم المؤمن ومنهم الكافر، ومنهم المطيع ومنهم العاصي. وهناك بدأت تتجلى سنة الله في الابتلاء؛ فحيث يوجد الاختيار، توجد مسؤولية العمل، ويكون الجزاء على الطاعة أو العصيان.

الدليل من القرآن

«﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[التحريم: ٦]»

«﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾[الرحمن: ١٥]»

«﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦]»

الدليل من السنة

قال رسول الله ﷺ:«خُلِقَتِ الملائكةُ من نورٍ، وخُلِقَ الجانُّ من مارجٍ من نارٍ، وخُلِقَ آدمُ مما وُصف لكم.»رواه ، وهو حديث صحيح.

يكشف هذا الحديث اختلاف أصل الخلق، لكنه يؤكد أن الجميع مخلوقون لله سبحانه، خاضعون لسلطانه، لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا إلا بإذنه.

قصة

لم يكن إبليس مَلَكًا، بل كان من الجن، وقد رفعه الله بمنزلته بين الملائكة لعبادته واجتهاده. غير أن العبادة إذا خلت من التواضع، أفسدها الكبر.

وحين أمر الله الملائكة بالسجود لآدم تكريمًا له، امتثلوا جميعًا دون تردد، أما إبليس فقد نظر إلى أصله، ولم ينظر إلى أمر ربه، فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾، فكانت أول معصية في التاريخ سببها الكِبر، لا الجهل ومنذ تلك اللحظة، بدأ الصراع بين طاعةٍ تنبع من الخضوع لله، ومعصيةٍ تنبع من تعظيم النفس.

الإنسان المعاصر

ما أكثر الذين يسقطون اليوم في الخطأ نفسه؛ لا لأنهم يجهلون الحق، بل لأن الكِبر يمنعهم من قبوله. فقد يرد الإنسان نصيحةً صادقة، أو يرفض الاعتراف بخطئه، أو يحتقر غيره لمالٍ أو علمٍ أو منصب، وهو لا يشعر أنه يسير في الطريق الذي أهلك إبليس إن

أول طريق الهداية هو التواضع، وأول طريق الضلال أن يرى الإنسان نفسه فوق الحق.

بين الإيمان وعلم النفس

يرى علماء النفس أن الكِبر يمنع الإنسان من مراجعة نفسه، ويجعله يفسر أخطاءه بأنها صواب، ويصعب عليه الاعتذار أو الاعتراف بالتقصير. أما التواضع، فيزيد من مرونة التفكير، ويحسن العلاقات، ويعين الإنسان على التعلم والنمو.

وقد سبق الإسلام إلى معالجة هذا الداء، فجعل التواضع خلقًا من أخلاق الأنبياء والصالحين، وحذر من الكبر أشد التحذير؛ لأنه يحجب القلب عن قبول الحق.

وقفات

- لا قيمة لعبادةٍ يخالطها الكِبر.

- أول خطوة إلى الله أن تعرف قدر نفسك أمام عظمة ربك.

- لا يقاس الإنسان بأصله، وإنما بطاعته وتقواه.

- من تواضع لله رفعه، ومن تكبر قصمه الله.

تمهيد للفصل الرابع

وبعد أن امتلأت السماوات بالطاعة، وجرت أول فتنة بسبب الكِبر، جاء الحدث الذي سيغيّر مسار التاريخ كله؛ إذ شاء الله سبحانه أن يخلق آدم عليه السلام، ويجعله خليفةً في الأرض، لتبدأ رحلة الإنسان، ويبدأ معها أعظم اختبار عرفته البشرية.

الفصل الرابع

حين أعلن الله عن خليفته في الأرض

«﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾

[البقرة: ٣٠]»

قبل أن يُخلق آدم عليه السلام، وقبل أن تنبض الأرض بخطوات الإنسان، أعلن الله سبحانه أمرًا سيغيّر تاريخ هذا العالم كله.

لم يكن إعلانًا عن خلق مخلوقٍ جديد فحسب، بل كان إعلانًا عن بداية عهدٍ جديد، تُحمل فيه الأمانة، ويبدأ فيه الابتلاء، ويُمنح فيه الإنسان العقل والإرادة والاختيار.

كانت الملائكة، وهم عباد الله المكرمون، يشهدون هذا الخبر العظيم، فسألوا سؤال المتعلم المستفهم، لا سؤال المعترض المنكر، فقالوا:

«﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾»

فجاءهم الجواب الذي يختصر حكمة الله كلها:«﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾»إنها كلمات قليلة، لكنها تفتح أمام العقل أبوابًا واسعة من التأمل؛ فالله سبحانه لا يقضي أمرًا إلا لحكمة، ولا يخلق خلقًا إلا لغاية، وقد يعلم العباد بعض الحكمة، وتغيب عنهم حكمٌ أعظم لا يعلمها إلا هو.

الدليل من السنة

قال رسول الله ﷺ:

««احتجَّ آدمُ وموسى، فقال موسى: يا آدم، أنت أبونا، خيبتنا وأخرجتنا من الجنة... فقال آدم: أتلومني على أمرٍ قد كتبه الله عليَّ قبل أن يخلقني؟ فحجَّ آدمُ موسى.»رواه ، وهو حديث صحيح.

وهذا الحديث يبين أن خلق آدم ودوره في الاستخلاف كان داخلًا في علم الله وتقديره منذ البداية، وأن ما جرى لم يكن خارجًا عن مشيئته سبحانه، مع بقاء مسؤولية الإنسان عن أفعاله واختياراته.

حكمة الاستخلاف

لم يكن اختيار الإنسان للاستخلاف في الأرض تشريفًا مجردًا، بل كان تكليفًا عظيمًا. فقد أودع الله فيه العقل الذي يميز، والإرادة التي تختار، وأقام عليه الحجة بالوحي، ليكون مسؤولًا عن عمله، ومحاسبًا على قراره.

ولذلك لم يكن وجود الإنسان في الأرض عبثًا، ولم تُمنح له النعم ليستهلكها دون غاية، بل ليعمر الأرض بالحق والعدل والإحسان، ويجعل من حياته طريقًا إلى رضا الله.

الدليل من القرآن

«﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[هود: ٦١]»

«﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[الملك: ٢]»

الإنسان اليوم

وما زال الاستخلاف قائمًا إلى يومنا هذا. فكل إنسان يحمل مسؤوليةً تناسب موقعه؛ في بيته، وعمله، وعلمه، وعلاقاته بالناس. وليس النجاح الحقيقي في كثرة ما يملك، بل في حسن أداء الأمانة التي ائتمنه الله عليها.

إن الإنسان حين يدرك أنه مستخلف لا مالك، يتعامل مع النعمة بشكر، ومع السلطة بعدل، ومع الناس برحمة، لأنه يعلم أن كل ما بين يديه أمانة سيُسأل عنها يوم القيامة.

وقفة

إن أول خطوة في طريق الإصلاح ليست أن تغيِّر العالم، بل أن تدرك رسالتك فيه؛ فمن عرف الغاية، هانت عليه مشقة الطريق، ومن استشعر مراقبة الله، أصبح كل عمل صالح يؤديه لبنةً في عمارة الأرض التي استخلفه الله فيها.

تمهيد

وبعد أن أعلن الله للملائكة أنه جاعل في الأرض خليفة، جاء الحدث العظيم الذي انتظرته السماوات والأرض، حين خلق الله آدم عليه السلام بيديه، ونفخ فيه من روحه، فبدأت قصة الإنسان التي ستبقى ممتدةً إلى قيام الساعة.

بين الإيمان والواقع

كثيرٌ من الناس يقيسون قيمتهم بما يملكون، أو بما يحققون من نجاحٍ دنيوي، بينما يعلمنا هذا المشهد القرآني أن قيمة الإنسان الحقيقية تبدأ من قيامه بالرسالة التي خُلق من أجلها. فالاستخلاف ليس لقبًا يُمنح، وإنما مسؤولية تُؤدَّى، وعهدٌ بين العبد وربه.

وليس المقصود بعمارة الأرض تشييد البنيان فحسب، بل عمارتها بالإيمان، والعدل، والرحمة، والعلم، والإحسان. فكل يدٍ تمتد لإغاثة محتاج، وكل عقلٍ ينشر علمًا نافعًا، وكل قلبٍ يصلح بين الناس، إنما يؤدي جانبًا من رسالة الاستخلاف التي أرادها الله لعباده.

بين الإيمان وعلم النفس

يؤكد علماء النفس أن الإنسان الذي يعيش من أجل غاية سامية يكون أكثر قدرة على تحمل المشاق، وأكثر ثباتًا أمام الأزمات، لأن المعنى يمنح صاحبه قوةً تعجز عنها الإمكانات المادية وحدها.

وهذا ما يربي عليه القرآن؛ إذ يجعل حياة المؤمن مرتبطة برسالة، لا بمجرد رغبات عابرة، فيصبح النجاح الحقيقي هو القرب من الله، لا كثرة التصفيق من الناس.

تأمل

ما أشرف الإنسان حين يطيع ربه، وما أضعفه حين ينسى رسالته.

لقد خلق الله الإنسان ليكون سببًا في نشر الخير، فإذا تحول إلى أداةٍ للفساد، فقد ابتعد عن الحكمة التي خُلق من أجلها، وإن ظن أنه بلغ من الدنيا ما بلغ.

وما تزال كلمات الله تتردد في كل عصر:«﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾»

فكم من أمرٍ استثقله الإنسان، ثم ظهر له بعد حين أنه عين الخير، وكم من ابتلاءٍ ظنه شرًا، فإذا هو بابٌ إلى الرحمة، وكم من تأخيرٍ ظنه حرمانًا، فإذا هو حفظٌ من الله ولطف.

ولهذا فإن المؤمن لا يقيس الأقدار بعجلة اللحظة، وإنما يزنها بميزان الثقة بالله، ويوقن أن علم الله أكمل من علمه، وحكمته أوسع من إدراكه.

وقفات

- من عرف أن الله أحكم الحاكمين، رضي بقضائه وإن خفيت عليه الحكمة.

- أعظم تكريمٍ للإنسان أنه حُمِّل الأمانة، وأُرسل إليه الوحي.

- لا تُقاس قيمة الإنسان بما يملك، بل بما يقدم بين يدي الله.

- الاستخلاف يبدأ بإصلاح النفس، ثم يمتد إلى إصلاح الأسرة والمجتمع.

تمهيد للفصل القادم

وبعد أن أعلن الله سبحانه للملائكة أنه جاعلٌ في الأرض خليفة، جاء الوقت الذي تجلت فيه قدرة الخالق في صورةٍ لم يشهدها الكون من قبل؛ إذ خلق الله آدم عليه السلام، وسوّاه بيديه، ثم نفخ فيه من الروح التي أكرمه الله بها، لتبدأ أول صفحة من صفحات رحلة الإنسان على هذه الأرض.

الفصل الخامس

حين سَوَّى الله آدم... بداية الإنسان

«﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[ص: ٧١-٧٢]»

بعد أن أعلن الله سبحانه للملائكة أنه جاعلٌ في الأرض خليفة، جاء اليوم الذي شاء فيه أن يُظهر آيةً جديدة من آيات قدرته؛ فخلق آدم عليه السلام، لا كما يولد البشر اليوم، ولا كما تتكاثر المخلوقات، وإنما خلقًا ابتدأه الله بقدرته، ليبقى شاهدًا على أن الخالق إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون.

لقد خُلق آدم من طين، وهي مادةٌ يراها الإنسان بعينه، ويدوسها بقدمه، ليبقى في أصل خلقه درسٌ خالد؛ فلا يغتر بقوته، ولا يتكبر بعلمه، ولا ينسى أنه بدأ من تراب، وسيعود إلى تراب، ثم يبعثه الله للحساب ولم يكن الطين مصدر شرف آدم، وإنما كان الشرف في نفخة الروح التي أكرمه الله بها، وفي العقل الذي وهبه له، وفي الأمانة التي حمّله إياها، وفي الهداية التي أنزلها عليه. وهكذا يعلّمنا

القرآن أن قيمة الإنسان ليست في أصله، ولا في نسبه، ولا في ماله، وإنما في إيمانه وعمله.

الدليل من القرآن

«﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[آل عمران: ٥٩]»

«﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾[المؤمنون: ١٢]»

الدليل من السنة

قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ الله خلق آدم على صورته، طوله ستون ذراعًا...»

رواه ، وهو حديث صحيح.

تأمل

حين يتأمل الإنسان بداية خلقه، يسقط عنه ثوب الكِبر، ويعلم أن الفضل كله لله. فمن كان أصله طينًا، فلا يليق به أن يتعالى على أحد، ولا أن يحتقر عبدًا من عباد الله إن أعظم ما يرفع الإنسان ليس جمال صورته، بل نقاء قلبه، ولا مكانته بين الناس، بل منزلته عند الله.

بين الإيمان والواقع

لقد أصبح الناس اليوم يتفاخرون بالمظاهر والألقاب والمكاسب، حتى ظن بعضهم أن قيمة الإنسان بما يملك. غير أن قصة خلق آدم تعيد ترتيب الموازين؛ فالله لم يكرم الإنسان لماله، ولا لقوته، وإنما كرمه بالعقل، والهداية، وحمل الأمانة ومن نسي أصله، سهل عليه أن يتكبر، ومن تذكر أنه خُلق من تراب، عاش متواضعًا، وعامل الناس برحمة، ورجا فضل الله أكثر مما رجا فضل نفسه.

تمهيد

وبعد أن اكتمل خلق آدم عليه السلام، جاء الأمر الإلهي الذي كشف ما في القلوب، وأظهر الفرق بين الطاعة الخالصة والكِبر المستتر، حين أمر الله الملائكة بالسجود لآدم، فامتثلوا جميعًا... إلا واحدًا.

الفصل السادس

أول معصية في السماء... حين تكبَّر إبليس

«﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[البقرة: ٣٤]»ساد صمتٌ مهيب، ثم جاء الأمر من رب العالمين، أمرٌ لا يملك أحدٌ أمامه إلا السمع والطاعة أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم سجود تكريمٍ لا سجود عبادة، فامتثلوا جميعًا دون تردد؛ لأنهم عبادٌ لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون لكن في ذلك الموقف العظيم، انكشف ما كان خفيًا في قلب إبليس لم يمنعه الجهل من الطاعة، ولم تمنعه قلة العلم، وإنما منعه الكِبر. نظر إلى أصل خلقه، ولم ينظر إلى أمر ربه، فقال في غرورٍ وعناد:«﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[الأعراف:

١٢]»كانت تلك الكلمات أول إعلانٍ للاستعلاء في تاريخ الخليقة، وأول معصيةٍ قامت على الكبر، لا على ضعفٍ أو غفلة فاستحق إبليس اللعنة والطرد من رحمة الله، لأنه قدَّم رأيه على أمر خالقه، وجعل ميزان التفاضل من عند نفسه، لا من عند الله.

الدليل من القرآن

«﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص: ٧٧-٧٨]»

«﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]»

الدليل من السنة

قال رسول الله ﷺ:«لا يدخل الجنةَ من كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ من كِبر.»رواه ، وهو حديث صحيح.

وسأل رجلٌ النبي ﷺ عن حب الإنسان أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة، فقال ﷺ:«إن الله جميلٌ يحب الجمال، الكِبر بطرُ الحقِّ وغمطُ الناس.» فبيَّن النبي ﷺ أن الكبر ليس حسن المظهر، وإنما هو ردُّ الحق واحتقار الناس.

قصة

لم يطلب إبليس من الله أن يرفعه، ولا أن يغفر له، بل طلب أن يُمهله إلى يوم القيامة، ليُضل بني آدم، ظانًا أن سبب هلاكه هو آدم، مع أن سبب هلاكه الحقيقي كان كِبره وعصيانه.

فقال: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[الأعراف: ١٦]

ومنذ تلك اللحظة بدأت عداوة الشيطان للإنسان، وهي عداوة لا تقوم على سببٍ دنيوي، وإنما على الحسد والكبر والانتقام.

بين الإيمان والواقع

ليس كل من ضلَّ كان جاهلًا، فقد يعلم الإنسان الحق، ثم يرفضه لأن نفسه تأبى الاعتراف به كم من علاقةٍ انكسرت بسبب الكبر، وكم من أسرةٍ تفرقت لأن أحد أفرادها رفض الاعتذار، وكم من إنسانٍ خسر آخرته لأنه رأى نفسه أكبر من أن يرجع إلى الحق إن أخطر أمراض القلب ليس الجهل، بل الكبر؛ لأنه يغلق أبواب الهداية، ويمنع صاحبه من رؤية عيوب نفسه.

بين الإيمان وعلم النفس

تشير الدراسات النفسية إلى أن الشخص المتكبر يجد صعوبة في الاعتراف بالخطأ، ويلجأ إلى تبرير أفعاله وإلقاء اللوم على الآخرين حفاظًا على صورته عن نفسه. وهذه الصفات تُفسد العلاقات، وتمنع النمو الشخصي أما التواضع، فيزيد من القدرة على التعلم، ويجعل الإنسان أكثر تقبلًا للنصيحة، وأقرب إلى

الاتزان النفسي وقد سبق الإسلام إلى بيان ذلك، فجعل التواضع من أعظم الأخلاق، وحذَّر من الكبر لأنه يحجب القلب عن قبول الحق.

وقفات

- أول ذنبٍ عُصي الله به كان الكبر.

- لا تُقاس قيمة الإنسان بأصله، بل بطاعته.

- من ردَّ الحق تكبرًا، فقد سلك طريق إبليس.

- التواضع يرفع صاحبه عند الله، وإن كان مجهولًا بين الناس.

- كلما ازداد الإنسان علمًا، ازداد تواضعًا، لأن العلم الحقيقي يقود إلى معرفة النفس وعظمة الخالق.

تمهيد للفصل السابع

وبعد أن سجدت الملائكة، وطُرد إبليس من رحمة الله، أكرم الله آدم وزوجه بأن أسكنهما الجنة، لتبدأ مرحلةٌ جديدة من القصة؛ مرحلة النعمة، والابتلاء، والاختبار الذي سيكشف للإنسان أن باب التوبة مفتوح، وأن رحمة الله أوسع من الذنب لمن رجع إليه.

الفصل السابع

إسكان آدم وزوجه الجنة، وابتلاء الشجرة، والتوبة إلى الله

تمهيد

وبعد أن سجدت الملائكة لآدم عليه السلام امتثالًا لأمر الله تعالى، وطُرد إبليس من رحمته بسبب كبره وعصيانه، بدأت مرحلة جديدة

من مراحل قصة الإنسان الأولى. فقد أكرم الله سبحانه وتعالى آدم وزوجه حواء بأن أسكنهما الجنة، وهي دار النعيم التي أعدها الله لعباده، وأباح لهما التمتع بكل ما فيها من خير، إلا شجرةً واحدة نهاهما عن الاقتراب منها، ليكون ذلك ابتلاءً واختبارًا لطاعتهما وفي هذا المشهد تتجلى حقيقة عظيمة، وهي أن الحياة قائمة على الابتلاء، وأن الإنسان مهما بلغ من النعيم فإنه يبقى مأمورًا بطاعة الله، ومنهيًا عن معصيته. كما تكشف هذه المرحلة عن أول مواجهة بين الإنسان والشيطان، الذي أقسم أن يضل بني آدم، فاتخذ من الوسوسة طريقًا لإغوائهم، مستغلًا رغبتهم في الخلود والبقاء ولم يكن وقوع آدم في المخالفة نهاية الطريق، بل كانت بداية درس خالد في رحمة الله تعالى، إذ فتح له باب التوبة، وقبل إنابته، ليبقى هذا الموقف رسالة أمل لكل مذنب، بأن الله سبحانه يقبل التائبين ويغفر للمستغفرين مهما عظمت ذنوبهم إذا صدقت توبتهم.

أولًا: إسكان آدم وزوجه الجنة

بعد أن خلق الله تعالى آدم عليه السلام، وعلّمه الأسماء كلها، وفضّله بالعلم، وأمر الملائكة بالسجود له تكريمًا، أمره سبحانه أن يسكن الجنة هو وزوجه، قال تعالى:﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(سورة البقرة: ٣٥).

وقد تضمنت هذه الآية معاني عظيمة، منها أن الله تعالى أباح لآدم وزوجه جميع نعم الجنة، ولم يمنعهما إلا من شيء واحد، وفي ذلك دليل على سعة رحمة الله، وأن أوامره ونواهيه مبنية على الحكمة والرحمة.

ثانيًا: الحكمة من النهي عن الشجرة

إن النهي عن الاقتراب من الشجرة لم يكن لحاجةٍ من الله سبحانه، وإنما كان اختبارًا لطاعة آدم عليه السلام، فالعبودية الحقة لا تتحقق إلا بامتثال الأمر واجتناب النهي كما أن هذا الابتلاء يعلّم الإنسان أن الشهوات قد تكون سببًا في الوقوع في المعصية إذا لم يضبطها بطاعة الله، وأن مخالفة أمر الله مهما بدت صغيرة فإن لها آثارًا عظيمة.

ثالثًا: بداية عداوة الشيطان للإنسان

لم ينس إبليس ما أصابه من اللعنة والطرد، فبدأ ينفذ وعيده لبني آدم، وكانت أول خطواته إغواء آدم عليه السلام.

قال تعالى:

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ (سورة الأعراف: ٢٠).

استعمل إبليس أسلوب الخداع والتزيين، فلم يأمرهما بالمعصية مباشرة، بل أوهمهما أن الأكل من الشجرة سيمنحهما الخلود والملك الذي لا يبلى، وهذا منهج الشيطان مع البشر في كل زمان.

رابعًا: القسم الكاذب وخداع النفس

لم يكتف إبليس بالوسوسة، بل أقسم بالله كذبًا ليطمئن آدم وزوجه، قال تعالى:﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾

(سورة الأعراف: ٢١).

وهنا يظهر خطر الانخداع بالمظاهر والكلمات المعسولة، فليس كل من أقسم أو أظهر النصح صادقًا، ولذلك وجب على المؤمن أن يجعل ميزانه كتاب الله وسنة رسوله، لا العواطف ولا الأقوال المجردة.

خامسًا: وقوع المخالفة وظهور أثر الذنب

استجاب آدم وزوجه لوسوسة الشيطان، فأكلا من الشجرة، فكانت النتيجة مباشرة، قال تعالى:

﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾

(سورة الأعراف: ٢٢).

وهذه الآية تبين أن للمعصية آثارًا عاجلة على القلب والنفس، وأن الذنب يحرم صاحبه شيئًا من نعمة الطاعة والطمأنينة.

سادسًا: عتاب الله لآدم

عاتب الله تعالى آدم عليه السلام برفق ورحمة، فقال سبحانه:

﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾(سورة الأعراف: ٢٢) وفي هذا العتاب تذكير بأن الإنسان قد ينسى، وقد يضعف، لكنه مسؤول عن أفعاله، وأن الشيطان عدو ظاهر لا ينبغي الوثوق به.

سابعًا: التوبة الصادقة

لم يُصر آدم عليه السلام على الذنب، ولم يُلقِ اللوم على غيره، بل بادر إلى الاعتراف بخطئه، وتلقى من ربه كلمات تاب بها إليه.

قال تعالى:

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

(سورة الأعراف: ٢٣).

وقال سبحانه:

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

(سورة البقرة: ٣٧).

وهذا أعظم دليل على أن باب التوبة مفتوح لكل من رجع إلى الله بقلب صادق، وأن رحمة الله تسبق غضبه.

ثامنًا: الهبوط إلى الأرض

بعد قبول التوبة، أمر الله آدم وزوجه وإبليس بالهبوط إلى الأرض، لتبدأ رحلة الاستخلاف والابتلاء.

قال تعالى:

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

(سورة البقرة: ٣٨).

ومنذ تلك اللحظة بدأت حياة الإنسان في الأرض، قائمة على الصراع بين الحق والباطل، وبين الهداية والضلال، مع بقاء باب التوبة مفتوحًا إلى قيام الساعة.

الدروس المستفادة

١. نعم الله لا تُحصى، وما حرمه الله على عباده قليل بالنسبة لما أباحه لهم.

٢. الابتلاء سنة إلهية حتى في مواضع النعيم.

٣. الشيطان عدو الإنسان الأول، وأسلوبه قائم على التزيين والخداع.

٤. المعصية تترك أثرًا في القلب قبل الجسد.

٥. خير الخطائين التوابون، وأول طريق التوبة الاعتراف بالذنب.

٦. رحمة الله تعالى أعظم من ذنوب عباده إذا صدقت توبتهم.

٧. الهداية هي سبيل النجاة في الدنيا والآخرة.

٨. قصة آدم عليه السلام ليست قصة سقوط، بل قصة توبة ورحمة وتعليم للبشرية كلها.

خاتمة الفصل

يكشف هذا الفصل أن الإنسان خُلق ليُبتلى، وأن الخطأ من طبيعته، لكن الله سبحانه لم يتركه دون سبيل للنجاة، بل فتح له باب التوبة والإنابة، وجعل الرجوع إليه سببًا للفوز برضوانه. كما تؤكد قصة آدم عليه السلام أن الشيطان لا يملّ من إغواء الإنسان، وأن النجاة منه تكون بالعلم، واليقين، والاعتصام بالله، واتباع هداه. ومن هنا تبدأ رحلة البشرية على الأرض، رحلةٌ تتكرر فيها صور الابتلاء، ويبقى فيها وعد الله قائمًا بأن من اتبع هداه فلا خوف عليه ولا هو يحزن.

الفصل الثامن

السقوط... ثم النهوض بالتوبة

«﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾[البقرة: ٣٦]»

ليست كل قصةٍ تبدأ بالنعيم تنتهي به، وليست كل زلةٍ تعني نهاية الطريق. ففي حياة الإنسان لحظات ضعف، ولكن رحمة الله كانت ولا تزال أعظم من ضعف عباده لم يدخل الشيطان إلى آدم عليه السلام من باب الكفر، ولا من باب إنكار الله، وإنما دخل من باب الأمنيات. زين له أن الأكل من الشجرة سيمنحه الخلود، وأنه سيبلغ منزلةً أعظم، فغلبت لحظةُ الضعف ما كان في قلبه من يقين، فوقعت الزلة ولم يكن آدم مصرًّا على المعصية، ولم يتعمد مخالفة أمر الله استكبارًا، وإنما أخطأ، فكانت أول تجربةٍ يتعلم منها الإنسان

أن النفس قد تضعف، وأن العبد مهما بلغ من الصلاح يبقى محتاجًا إلى عون الله.

الدليل من القرآن

«﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾[طه: ١٢٠]»

«﴿فَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ۝ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾

[طه: ١٢١-١٢٢]»

«﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

[البقرة: ٣٧]»

الدليل من السنة

قال رسول الله ﷺ:«كلُّ بني آدم خطَّاء، وخيرُ الخطَّائين التوابون.»

رواه، وحسَّنه عدد من أهل العلم.

ويبين هذا الحديث أن الخطأ من طبيعة الإنسان، لكن كماله ليس في العصمة، وإنما في سرعة الرجوع إلى الله.

القصة

ما إن أدرك آدم وحواء ما وقعا فيه، حتى لم يبحثا عن الأعذار، ولم يلقيا اللوم على غيرهما، بل وقفا بين يدي ربهما معترفين بتقصيرهما، خاشعين منيبين.

فقالا:««﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

[الأعراف: ٢٣]»

كانت هذه الكلمات بداية مدرسة التوبة في تاريخ البشرية، ومنها تعلم المؤمنون أن باب الله لا يُغلق في وجه من صدق في الرجوع إليه.

بين الإيمان والواقع

يفرق الإسلام بين من يقع في الذنب فيندم ويتوب، وبين من يبرر ذنبه ويستمر فيه فآدم أخطأ، ثم عاد إلى الله، فغفر الله له. أما إبليس فعصى، ثم تكبر، وألقى اللوم على غيره، فاستحق اللعنة وهكذا يكون الفرق بين طريق الهداية وطريق الضلال؛ فليس في الذنب وحده، بل في الموقف بعد الذنب.

بين الإيمان وعلم النفس

تشير الدراسات النفسية إلى أن الاعتراف بالخطأ وتحمل المسؤولية من أهم خطوات التعافي النفسي والإصلاح السلوكي، بينما يؤدي الإنكار وإلقاء اللوم على الآخرين إلى استمرار المشكلات وتعقيدها

وهذا ما يربي عليه القرآن؛ فالإنسان القوي ليس الذي لا يخطئ، وإنما الذي يملك شجاعة الاعتراف، ويبدأ بالإصلاح.

وقفات

- الشيطان يفتح باب المعصية، لكنه لا يفتح باب التوبة؛ لأن باب التوبة يفتحه الله وحده.

- لا تجعل ذنبًا واحدًا يبعدك عن ربك، فربما كانت توبة صادقة سببًا في رفعتك.

- الاعتراف بالخطأ شجاعة، والإصرار عليه ضعف.

- رحمة الله أوسع من ذنوب العباد جميعًا لمن تاب وأناب.

تمهيد للفصل التاسع

وبعد أن تاب الله على آدم، جاء الأمر الإلهي بالهبوط إلى الأرض، لا عقوبةً مجردة، بل بدايةً لرسالة الاستخلاف، ولرحلة الإنسان في دار الابتلاء، حيث تتعاقب الأجيال، وتستمر المعركة بين الحق والباطل حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

الفصل التاسع

إلى الأرض... حيث بدأت رحلة الإنسان

«﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

[البقرة: ٣٨]»

لم يكن الهبوط إلى الأرض نهاية القصة، بل كان بدايتها ظن كثير من الناس أن خروج آدم عليه السلام من الجنة كان نهاية النعمة، بينما يخبرنا القرآن أن الأرض لم تكن ساحةً للعقوبة وحدها، بل ميدانًا للعبادة، والعمل، والابتلاء، والتوبة، والرجوع إلى الله لقد شاء الله منذ الأزل أن يكون الإنسان خليفةً في الأرض، ولذلك لم يكن الهبوط أمرًا خارجًا عن علمه سبحانه، وإنما كان جزءًا من حكمته التي أخبر بها ملائكته منذ البداية ومنذ أن وطئت قدما آدم الأرض، بدأت رحلة البشرية كلها؛ رحلةٌ تمتزج فيها الأفراح بالأحزان، والنصر بالابتلاء، والغنى بالفقر، والصحة بالمرض، ليظهر الصادق من الكاذب، والمؤمن من المعرض.

الدليل من القرآن

«﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[الأعراف: ٢٤]»

«﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾

[الملك: ٢]»

الدليل من السنة

قال رسول الله ﷺ:

«الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر.» فليس معنى ذلك أن المؤمن لا يفرح أو لا يتمتع بالمباح، وإنما أن الدنيا ليست غايته الأخيرة، بل محطة يعبر منها إلى الدار الباقية.

القصة

خرج آدم عليه السلام من الجنة وقد ذاق مرارة الخطأ، وحلاوة التوبة، وعرف أن الإنسان قد يضعف، لكنه لا يهلك ما دام باب العودة إلى الله مفتوحًا بدأ يزرع، ويعمل، ويجتهد، ويعلم أبناءه عبادة الله، لتنشأ أول أسرة على وجه الأرض، وليبدأ تاريخ الإنسان الحقيقي ومن تلك الأسرة الصغيرة خرجت شعوب الأرض كلها، واختلفت ألسنتهم وألوانهم، وبقي أصلهم واحدًا، وربهم واحدًا، ودين الأنبياء جميعًا واحدًا، وهو توحيد الله سبحانه.

بين الإيمان والواقع

كل إنسان يعيش اليوم قصة آدم بصورةٍ أو بأخرى نولد في دنيا مليئة بالاختبارات، ونخطئ، ونصيب، ونقع، ثم نقوم، ونفرح، ونحزن، حتى يأتي اليوم الذي نلقى فيه ربنا ولذلك لا ينبغي للمؤمن أن يظن أن كثرة الابتلاء دليل على غضب الله، فقد كانت حياة آدم منذ نزوله إلى الأرض مليئة بالتكاليف، ومع ذلك كان نبيًا كريمًا اصطفاه الله.

بين الإيمان وعلم النفس

يؤكد المختصون في علم النفس أن الإنسان يزداد نضجًا عندما يتعلم من تجاربه، ولا يجعل إخفاقاته نهاية حياته وهذا ما تعلمناه من قصة آدم؛ فلم يمنعه خطؤه من مواصلة رسالته، ولم يدفعه شعوره بالذنب إلى اليأس، بل بدأ من جديد، مستعينًا بالله، واثقًا برحمته إن الإسلام يصنع إنسانًا يراجع نفسه، ويتعلم من أخطائه، ويواصل السير، ولا يستسلم للفشل.

وقفات

- الأرض ليست وطن الإنسان الأخير، بل طريقه إلى الآخرة.

- كل ابتلاء فرصة جديدة للتقرب إلى الله.

- لا تجعل ماضيك يمنعك من صناعة مستقبلك.

- المؤمن لا يعيش أسير الذنب، بل يعيش راجيًا رحمة ربه، عاملًا بطاعته.

- ما دام القلب حيًا بالإيمان، فإن باب الأمل لا يُغلق.

تمهيد للفصل العاشر

ومع اتساع حياة آدم في الأرض، وكثرة ذريته، ظهر أول امتحان بين البشر أنفسهم، امتحان لم يكن سببه الجوع ولا الفقر، وإنما الحسد الذي إذا تمكن من القلب، قاد صاحبه إلى أعظم الجرائم.

وهنا تبدأ قصة قابيل وهابيل، أول دمٍ أُريق ظلمًا على وجه الأرض، وأول درسٍ تتعلم منه البشرية أن فساد القلب أخطر من فساد الجسد.

الفصل العاشر

أول دمٍ سُفك على الأرض... حين قتل الحسد أخاه

«﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾

[المائدة: ٢٧]»

ما إن بدأت الحياة تدب على الأرض، واجتمع الناس تحت سقف أسرةٍ واحدة، حتى ظن الإنسان أن رابطة الدم كافية لمنع الظلم. لكن القرآن يكشف حقيقةً لا تتغير عبر العصور؛ وهي أن الخطر الحقيقي لا يأتي من بُعد النسب، وإنما من فساد القلب لقد كان قابيل وهابيل أخوين، جمعتهما أسرة واحدة، وربّاهما أبٌ واحد، ومع ذلك تمكن الحسد من قلب أحدهما حتى أطفأ نور الرحمة، وحوّل الأخ إلى عدو، واليد التي خُلقت للعطاء إلى يدٍ تقتل وهكذا كانت أول جريمة في تاريخ البشر درسًا خالدًا؛ فحين يُترك القلب دون تزكية، تتحول النعمة إلى نقمة، وتتحول المحبة إلى عداوة، ويصبح الإنسان أسيرًا لهواه.

الدليل من القرآن

«﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ ۚ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾

[المائدة: ٢٧]»

«﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

[المائدة: ٣٠]»

الدليل من السنة

قال رسول الله ﷺ:«لا تُقتل نفسٌ ظلمًا إلا كان على ابنِ آدمَ الأولِ كِفْلٌ من دمِها؛ لأنه أولُ من سنَّ القتل.»وهذا الحديث يبين أن الإنسان لا يتحمل وزر فعله فقط، بل يتحمل كذلك مسؤولية فتح أبواب الشر إذا كان أول من سنها بين الناس.

القصة

لم يغضب هابيل، ولم يقابل التهديد بالتهديد، بل خاطب أخاه بكلمات الإيمان والرحمة، مذكرًا إياه بأن قبول العمل ليس بالقوة، وإنما بالتقوى لكن الحسد إذا استولى على القلب، أعمى البصيرة، فلم يعد صاحبه يسمع نصيحةً، ولا يرى حقًا امتدت يد قابيل إلى أخيه، فسقط أول قتيل على وجه الأرض، ووقف القاتل حائرًا أمام جسد أخيه، لا يدري ماذا يصنع به فبعث الله غرابًا يبحث في الأرض، ليريه كيف يواري سوءة أخيه، فازداد حسرةً على ما اقترفت يداه، ولكن الندم بعد الجريمة لا يرد الحياة إلى أصحابها.

بين الإيمان والواقع

ما أكثر الجرائم التي تبدأ بمشاعر صغيرة لا ينتبه إليها الإنسان؛ كلمة حسد، أو غيرة غير منضبطة، أو كراهية تُترك حتى تكبر إن كثيرًا من الخصومات بين الإخوة، والأقارب، والأصدقاء، لم تبدأ بسبب المال، وإنما بدأت بقلبٍ لم يرض بما قسم الله ولهذا لم يأمر الإسلام بحفظ الجوارح فقط، بل بدأ بإصلاح القلوب، لأن القلب إذا صلح، صلحت الأعمال كلها.

بين الإيمان وعلم النفس

يرى المختصون في علم النفس أن الحسد إذا تُرك دون معالجة، قد يتحول إلى غضب وعدوان وسلوك مدمر، لأنه يجعل الإنسان يقارن نفسه بالآخرين باستمرار، فيفقد الرضا، ويعيش في صراعٍ داخلي لا ينتهي أما الرضا بما قسم الله، والامتنان للنعم، وحسن الظن بالله، فهي من أعظم أسباب السلام النفسي، وقد ربّى الإسلام أتباعه عليها قبل أن تتحدث عنها المدارس النفسية الحديثة.

وقفات

- أول جريمة في التاريخ بدأت بحسدٍ سكن القلب.

- لا تحزن إذا سبقك غيرك إلى نعمة؛ فالأرزاق بيد الله، لا بيد الناس.

- القلب إذا امتلأ بالتقوى، سلمت اليد واللسان.

- إصلاح المجتمع يبدأ بإصلاح القلب.

- المؤمن يفرح لنعمة أخيه كما يفرح لنعمته، لأن فضل الله واسع لا ينفد.

تمهيد للفصل الحادي عشر

ومع مرور الزمن، كثرت ذرية آدم، وابتعد الناس شيئًا فشيئًا عن منهج الله، حتى انتشر الشرك لأول مرة في الأرض، فاقتضت حكمة الله أن يبعث أول رسول إلى البشرية، نبيًّا صابرًا، دعا قومه قرونًا طويلة، إنه نبي الله نوح عليه السلام، الذي بدأت معه مرحلة جديدة من تاريخ الإيمان والصراع بين الحق والباطل.

الفصل الحادي عشر

نوح عليه السلام... حين وقف رجلٌ واحد أمام أمةٍ كاملة

«﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح: ١]»

مرت الأعوام، وتعاقبت الأجيال بعد آدم عليه السلام، حتى بدأ الناس يبتعدون عن التوحيد الذي جاء به أبوهم الأول. ولم يقع الانحراف دفعةً واحدة، بل بدأ صغيرًا، ثم اتسع حتى أصبح الشرك واقعًا تعيشه الأمة وعندها اقتضت حكمة الله أن يبعث أول رسول إلى أهل الأرض، يحمل نور الهداية إلى قومٍ أظلمت قلوبهم بالغفلة، ويعيدهم إلى عبادة الله وحده لم يكن نوح عليه السلام صاحب سلطانٍ ولا مال، ولم يملك جيشًا ولا قوةً يفرض بها دعوته، وإنما حمل أعظم سلاحٍ عرفه الأنبياء: كلمة الحققوقف وحده في وجه مجتمعٍ كامل، لا يطلب منهم مالًا ولا جاهًا، وإنما يدعوهم إلى عبادة ربهم، ويحذرهم من عاقبة الإعراض.

الدليل من القرآن

«﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾

[الأعراف: ٥٩]»

«﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾

[نوح: ٢-٣]»

الدعوة التي لم تتوقف

لم تكن دعوة نوح عليه السلام أيامًا معدودة، ولا سنواتٍ قليلة، بل كانت رحلةً طويلة من الصبر والثبات. دعا قومه في الليل والنهار، وفي السر والعلانية، وخاطب عقولهم وقلوبهم، فلم يترك بابًا من أبواب الخير إلا طرقه وكان كلما ازداد حرصًا على هدايتهم، ازداد

أكثرهم إعراضًا واستكبارًا، حتى أصبحت السخرية رفيقة دعوته، والاستهزاء جوابًا لكلماته ومع ذلك، لم يحمل في قلبه يأسًا، لأنه كان يعلم أن وظيفة الرسول هي البلاغ، أما هداية القلوب فهي بيد الله وحده.

الدليل من القرآن

«﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾

[نوح: ٥-٦]»

«﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾

[نوح: ٨-٩]»

الدليل من السنة

قال رسول الله ﷺ:

«ما من نبيٍّ بعثه الله في أمةٍ قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب...»

وفي هذا تذكير بأن طريق الدعوة والإصلاح مليء بالصبر والثبات، وأن الأنبياء جميعًا واجهوا الابتلاء في سبيل تبليغ رسالة الله.

بين الإيمان والواقع

كثير من الناس يتركون الإصلاح إذا لم يروا نتائج سريعة، بينما يعلمنا نوح عليه السلام أن النجاح ليس في سرعة الثمرة، بل في صدق السعي قد تربي ولدًا سنوات، أو تدعو شخصًا إلى الخير زمنًا طويلًا، ولا ترى أثرًا مباشرًا، لكن الله لا يضيع عملًا أُريد به وجهه فالمؤمن يؤدي ما عليه، ثم يرضى بحكمة الله فيما يأتي بعد ذلك.

وقفات

- الصبر طريق الأنبياء، وليس طريق العاجزين.
- لا تقيس نجاحك بكثرة المستجيبين، بل بصدق إخلاصك.
- الكلمة الصادقة قد تتأخر ثمرتها، لكنها لا تضيع عند الله.
- من تعلق قلبه بالله، لم تكسره قلة الناصرين.

تمهيد

وبعد قرونٍ من الدعوة، جاء أمر الله الذي انتظره نوح عليه السلام؛ أمرٌ ببناء سفينة في أرضٍ لا بحر فيها، لتبدأ مرحلة جديدة، يظهر فيها أن النجاة تكون بطاعة الله، لا بحسابات البشر.

الفصل الثاني عشر

الطوفان... حين نجا الإيمان وغرق الكفر

«﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾

[هود: ٣٧]»

ليس كل أمرٍ من الله تدركه العقول لحظة صدوره، فقد يأمر الله عبده بما تستغربه الأبصار، ثم يكشف الزمن أن فيه النجاة كلها بعد سنواتٍ طويلة من الدعوة، أوحى الله إلى نوح عليه السلام أن يصنع سفينة. لم يكن حوله بحر، ولا أمواج، ولا ما يدعو إلى بناء سفينة، لكن المؤمن لا يقيس أوامر الله بما يراه، بل بما يؤمن به أخذ نوح يعمل بصبر، يقطع الخشب ويجمع أجزائه، بينما كان قومه يمرون به ساخرين، يضحكون من عمله، ويستهزئون بإيمانه وكان كلما سخروا منه، ازداد يقينًا بأن وعد الله حق، وأن ساعة الفصل آتية لا محالة.

الدليل من القرآن

«﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ۚ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾

[هود: ٣٨]»

«﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ﴾

[هود: ٤٠]»

الدليل من السنة

قال رسول الله ﷺ:

«مَثَلُ القائمِ على حدودِ اللهِ والواقعِ فيها كمثلِ قومٍ استهموا على سفينة...»

ويضرب النبي ﷺ بهذا المثل أهمية التعاون على حفظ المجتمع من الفساد، كما أن نجاة ركاب السفينة تكون بتعاونهم جميعًا.

القصة

جاء اليوم الذي انهمرت فيه السماء بالماء، وتفجرت الأرض عيونًا، فالتقى ماء السماء بماء الأرض، وبدأ الطوفان الذي وعد الله به أغلق باب السفينة بأمر الله، وسارت فوق الأمواج بحفظه ورعايته، بينما كانت المياه تعلو شيئًا فشيئًا حتى غمرت الأرض وفي تلك اللحظات العصيبة، لم تنفع القوة، ولا المال، ولا المكانة، وإنما نفع الإيمان والطاعة وكان من أشد المواقف ألمًا أن ابن نوح عليه السلام اختار طريق الكفر، فظن أن جبلًا سيحميه من الماء، فقال له أبوه مشفقًا:«﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ﴾»

لكن الابن رفض، فجاءه الجواب الإلهي عمليًا قبل أن يسمعه قولًا؛ فلا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحمه.

بين الإيمان والواقع

كم من إنسان يظن أن ذكاءه، أو ماله، أو منصبه، كفيل بإنقاذه من كل أزمة، ثم يكتشف أن الأسباب وحدها لا تكفي إذا انقطع التوفيق من الله إن الأخذ بالأسباب عبادة، لكن التعلق بها وحدها غفلة، أما المؤمن فيجمع بين العمل والثقة بالله.

بين الإيمان وعلم النفس

تشير الأبحاث النفسية إلى أن أصحاب الإيمان والمعنى يكونون أكثر قدرة على الثبات في الأزمات؛ لأنهم يرون للمحنة غاية، ولا يستسلمون لليأس عند اشتداد الظروف وهذا ما تعلمه نوح عليه السلام؛ فقد بقي ثابتًا رغم السخرية الطويلة، لأن يقينه بوعد الله كان أقوى من ضغط الواقع.

وقفات

- لا تجعل سخرية الناس تصرفك عن الحق.

- النجاة ليست في كثرة الإمكانات، بل في صدق الإيمان.

- قد يبدو أمر الله صعبًا في بدايته، لكنه يحمل الخير في نهايته.

- من وثق بالله، لم تُغرقه أمواج الفتن مهما ارتفعت.

تمهيد للفصل الثالث عشر

انتهى الطوفان، وبدأت البشرية صفحةً جديدة من التاريخ، لكن الإنسان لم يلبث أن عاد إلى الغفلة مرة أخرى. ومع مرور الزمن ظهرت أمة قوية اغترت بقوتها، فأرسل الله إليها نبيه هودًا عليه

السلام، ليذكرها بأن القوة بلا إيمان طريقٌ إلى الهلاك.بعد انحسار الطوفان مضت الأيام، وأذن الله للماء أن يعود إلى موضعه، فانحسر الطوفان كما بدأ بأمر الله، وأصبح ما كان يملأ الأرض شاهدًا على أن قدرة الخالق فوق كل قدرة.

ثم جاء الوعد الإلهي:

«﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤]»

استقرت السفينة على جبل الجودي، ونزل نوح عليه السلام ومن معه إلى أرضٍ جديدة، يحملون رسالة التوحيد من جديد، ويبدؤون بناء حياةٍ أساسها الإيمان بالله لم تكن النجاة نهاية الطريق، بل بداية مسؤولية أعظم؛ أن تبقى عقيدة التوحيد حيةً في القلوب، وأن تتعلم الأجيال من الماضي حتى لا تكرر أخطاءه.

العبرة الخالدة

إن قصة الطوفان ليست قصة ماءٍ أغرق الأرض فحسب، بل قصة قلوبٍ أغرقتها الشهوات حتى أعرضت عن الحق لقد كان قوم نوح يرون الآيات، ويسمعون الموعظة، لكنهم آثروا اتباع الهوى، فكانت العاقبة كما أخبر الله ولهذا فإن أعظم الطوفان ليس طوفان الماء، بل طوفان الغفلة الذي يجرف الإنسان بعيدًا عن ربه وهو لا يشعر.

بين الإيمان والواقع

في كل عصرٍ سفينة نجاة، لكنها ليست من خشب، وإنما هي الإيمان بالله، والتمسك بكتابه، واتباع سنة نبيه ﷺ وكلما كثرت الفتن، ازداد المؤمن تمسكًا بهذا الحبل المتين، لأنه يعلم أن النجاة لا تكون بمجاراة الباطل، وإنما بالثبات على الحق.

وقفة إيمانية

لم يُنْجِ الله نوحًا لأنه كان أقوى الناس، ولا لأنه أكثرهم مالًا، وإنما لأنه كان أكثرهم ثقةً بربه وهكذا فإن الإنسان قد يمر بأمواجٍ من الهموم، أو المرض، أو الفقد، أو الفتن، لكنه ما دام متعلقًا بالله، فإن الله يصنع له من كل ضيقٍ مخرجًا، ومن كل كربٍ فرجًا في الوقت الذي يريده سبحانه.

خاتمة الفصل

انتهى الطوفان، لكن سنة الله لم تنتهِ؛ فكل أمةٍ تتكبر عن الحق، وتغتر بقوتها، تُعرِّض نفسها للعاقبة نفسها، وإن اختلفت صورها ولذلك ستقودنا صفحات الكتاب إلى أمةٍ أخرى بلغت من القوة ما لم يبلغه غيرها، حتى قالت في غرور: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، فبعث الله إليهم نبيه هودًا عليه السلام، ليبدأ فصلٌ جديد من فصول الصراع بين الإيمان والاستكبار.

الفصل الرابع عشر

الريح التي أسقطت الجبابرة... نهاية قوم عاد

«﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

[الأحقاف: ٢٤]»

ليس كل ما يفرح به الإنسان يكون خيرًا، فقد يلبس البلاء ثوب النعمة، ويأتي الامتحان في صورة أمنية طال انتظارها بعد أن كذب قوم عاد نبيهم هودًا عليه السلام، واستكبروا عن عبادة الله، اشتد عليهم القحط، وانقطعت عنهم الأمطار، حتى أصبحت الأرض يابسة، والعيون قليلة الماء، والناس ينتظرون الغيث بلهفة وفي يوم من الأيام، ظهرت في الأفق سحابة عظيمة، فتعلقت بها القلوب، وظن القوم أنها تحمل المطر الذي طال انتظاره، وقالوا بفرح:

«﴿هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾»

لكن الحقيقة كانت مختلفة تمامًا لم تكن سحابة رحمة، بل كانت بداية العذاب الذي أنذرهم به نبيهم سنوات طويلة.

الدليل من القرآن

«﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾

[الأحقاف: ٢٥]»

«﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾

[الحاقة: ٦-٧]»

الدليل من السنة

عن أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ إذا رأى الريح أو الغيم عُرف ذلك في وجهه، وقال:

«وما يؤمنني أن يكون فيها عذاب؟ قد عُذِّب قومٌ بالريح...»

فكان ﷺ يعلم أمته ألا تغتر بالمظاهر، وأن تستحضر قدرة الله ورحمته وخشيته في كل الأحوال.

القصة

هبت الريح، لكنها لم تكن كأي ريح عرفها الناس كانت ريحًا شديدة، باردة، عاتية، تقلع كل ما تمر به بأمر الله، حتى أصبحت البيوت خاوية، والأجساد صرعى، وانتهت حضارة كانت ترى نفسها أقوى من كل شيءأما هود عليه السلام ومن آمن معه، فقد نجاهم الله برحمته، ليبقى الفرق واضحًا بين من احتمى بقوته، ومن احتمى بربه.

بين الإيمان والواقع

كم من إنسان يبني حياته على المال، أو المنصب، أو النفوذ، ويظن أن هذه الأمور ستبقى معه إلى الأبد لكن التاريخ يعلمنا أن القوة إذا انفصلت عن الإيمان، أصبحت سببًا للهلاك، وأن أعظم حصن

للإنسان هو تقواه، لا ما يملكه فقد تتغير الأحوال في أيام قليلة، ويبقى العمل الصالح وحده هو الرصيد الحقيقي.

بين الإيمان وعلم النفس

يشير علماء النفس إلى أن الغرور يولد شعورًا زائفًا بالأمان، فيدفع صاحبه إلى تجاهل التحذيرات، ورفض النصيحة، والاستهانة بالعواقب وهذا ما وقع فيه قوم عاد؛ فقد أعماهم شعورهم بالقوة عن رؤية الحقيقة، حتى جاءهم العذاب وهم يظنون أنهم في طريقهم إلى النجاة.

وقفات

- ليست كل سحابة تحمل مطرًا، ولا كل أمنية تحمل خيرًا.

- من توكل على قوته خذلته، ومن توكل على الله كفاه.

- لا يغتر المؤمن بما في يديه، بل يشكر الله ويخاف زوال النعمة.

- التاريخ لا يخلد الأقوياء، بل يخلد المؤمنين الصادقين.

تمهيد للفصل الخامس عشر

ومع مرور الزمن، قامت بعد عاد أمة أخرى بلغت شأنًا عظيمًا في العمران، فنحتت الجبال بيوتًا، وأبدعت في البناء، لكنها وقعت في الخطأ نفسه؛ الاستكبار عن أمر الله. فأرسل الله إليهم نبيه صالحًا عليه السلام، ومعه آية ظاهرة ستبقى من أعظم آيات الأنبياء: ناقة الله.

الفصل الخامس عشر

صالح عليه السلام... حين نطقت الآية وكذَّبها الهوى

«﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾

[الأعراف: ٧٣]»

لم يكن سقوط عاد نهاية غفلة الإنسان، فبعد أن مضت السنون، قامت أمةٌ جديدة ورثت الأرض، عُرفت بقوتها وإبداعها في البناء، حتى نحتت الجبال بيوتًا شاهقة، وظنت أن الصخور التي احتمت بها ستمنحها الخلود لكن الإنسان إذا لم يتعلم من تاريخ من سبقه، أعاد الأخطاء نفسها بثوبٍ جديد بعث الله إلى ثمود نبيَّه صالحًا عليه السلام، وكان منهم، يعرفونه ويعرفون صدقه وأمانته. لم يطلب سلطانًا، ولم يجمع مالًا، وإنما دعاهم إلى أعظم كلمةٍ عرفتها الأرض: اعبدوا الله وحده غير أن القلوب إذا تعلقت بالباطل، أصبحت ترى الحق غريبًا، ولو جاءها على لسان أقرب الناس إليها.

الدليل من القرآن

«﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾

[هود: ٦١]»

«﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا﴾

[هود: ٦٢]»

الدليل من السنة

قال رسول الله ﷺ عندما مرَّ بديار ثمود:

«لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم؛ أن يصيبكم مثل ما أصابهم.»

وفي هذا توجيهٌ للمؤمن أن يعتبر بمصارع الأمم، فلا يمر بها مرور المتفرج، بل مرور المتعظ.

القصة

طلب قوم ثمود من صالح عليه السلام آيةً تدل على صدقه، فأظهر الله لهم معجزةً عظيمة؛ ناقةً جعلها الله آيةً بينة، وأمرهم ألا يمسوها بسوء، وأن يتركوها تشرب في يومٍ معلوم، ولهم شرب يومٍ آخر كانت الآية واضحة لا لبس فيها، فلم يكن ينقصهم الدليل، وإنما كان ينقصهم صدق التسليم ومع مرور الأيام، ضاق أهل الكبر بهذه الآية، ورأوا فيها قيدًا على أهوائهم، فتآمروا على قتل الناقة، غير مبالين بأمر الله ولا بتحذير نبيهم ولم يكن قتل الناقة اعتداءً على دابةٍ فحسب، بل كان إعلانًا صريحًا لرفض أمر الله، واختيار طريق التمرد على طريق الهداية.

بين الإيمان والواقع

ليست المشكلة دائمًا في غياب الأدلة، فكثير من الناس يعرفون الحق، لكنهم يؤجلون اتباعه لأن أهواءهم تقف في الطريق فالهوى إذا سيطر على القلب، جعل الإنسان يبحث عن مبرراتٍ لرفض

الحقيقة، مهما كانت واضحة ولهذا كان أعظم جهادٍ يخوضه المؤمن هو جهاد نفسه، حتى لا تكون رغباتها أقوى من طاعتها لربها.

بين الإيمان وعلم النفس

يبين علماء النفس أن الإنسان قد يقع فيما يسمى الانحياز للرغبة؛ فيميل إلى قبول ما يوافق هواه، ورفض ما يخالفه، حتى لو كانت الأدلة واضحة وقد عالج القرآن هذا الداء منذ قرون، فربط الهداية بالإخلاص، وربط الضلال باتباع الهوى، لأن القلب إذا استقام، أبصر الحق كما هو.

وقفات

- لا يكفي أن ترى الدليل، بل يجب أن تستجيب له.

- أعظم حجابٍ بين الإنسان والحق هو الهوى.

- النعم والآيات أمانة، ومن استخف بها عرَّض نفسه للعقوبة.

- القلب المخلص يقوده الدليل، أما القلب المتكبر فيقوده الهوى.

تمهيد للفصل السادس عشر

لكن قوم ثمود لم يكتفوا بتكذيب نبيهم، بل تجاوزوا ذلك إلى قتل آية الله التي جعلها لهم، فاستحقوا العقوبة التي أنذرهم بها صالح عليه السلام. وفي الفصل القادم نعيش المشهد الأخير من قصة ثمود، ونتأمل كيف أن لحظةً واحدة من التمرد قد تهدم حضارةً كاملة، بينما تنجي طاعةٌ صادقة أصحابها.

الفصل السادس عشر

الصيحة التي أنهت حضارة... نهاية ثمود

«﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾

[هود: ٦٥]»

حين تجاوز قوم ثمود حدود الله، لم يعد الأمر مجرد معصية عابرة، بل أصبح إعلانًا صريحًا برفض الحق بعد أن قامت عليهم الحجة.

لقد رأوا الآية بأعينهم، وسمعوا نبيهم يحذرهم، وعرفوا أن الناقة ليست كسائر الدواب، بل آية من عند الله، ومع ذلك غلب الهوى على البصيرة، فامتدت الأيدي إلى ما نهى الله عنه.

ولم يكن صالح عليه السلام يتشفى في قومه، ولا يفرح بما سيصيبهم، وإنما بلغهم رسالة ربه، وأعطاهم فرصة أخيرة ليراجعوا أنفسهم، لكن القلوب التي طال عليها الإعراض يصعب عليها الرجوع إلا أن يشاء الله.

الدليل من القرآن

«﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾

[هود: ٦٦]»

«﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾

[هود: ٦٧]»

الدليل من السنة

قال رسول الله ﷺ:

«لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، حذرًا أن يصيبكم مثل ما أصابهم.»

وفي هذا توجيه نبوي إلى أن قصص الأمم ليست للتسلية، وإنما للاعتبار، ومراجعة النفس، والخوف من الوقوع فيما وقعوا فيه.

القصة

انقضت الأيام الثلاثة التي أنذرهم بها صالح عليه السلام، وجاء أمر الله الذي لا يرده شيء فأخذتهم الصيحة، وانتهى كل ما كانوا يفتخرون به من قوة وبنيان، وسكنت الأصوات التي كانت تتعالى بالاستكبار، ولم يبق إلا مساكن خالية، تروي للأجيال أن الحضارات لا يحفظها الحجر، وإنما يحفظها الإيمان أما صالح عليه السلام ومن آمن معه، فقد نجاهم الله برحمته، ليبقى وعد الله ثابتًا في كل زمان: أن النجاة لأهل الإيمان، وإن كانوا قلة.

بين الإيمان والواقع

كم من إنسان يبني حياته بإتقان، لكنه يهمل بناء قلبه وكم من مجتمع يتقدم في العمران، لكنه يتأخر في الأخلاق إن الحضارة الحقيقية لا تقوم على المباني وحدها، بل على العدل، والصدق، والرحمة، وتعظيم أمر الله. فإذا فقدت هذه القيم، أصبح البناء قويًّا من الخارج، ضعيفًا من الداخل.

بين الإيمان وعلم النفس

تشير دراسات السلوك الإنساني إلى أن الإصرار على الخطأ بعد وضوح عواقبه قد ينتج عن التحيز للقرار السابق؛ إذ يجد الإنسان صعوبة في التراجع خوفًا من الاعتراف بخطئه ولهذا كان التواضع والرجوع إلى الحق من أعظم أسباب النجاة، لأن الاعتراف بالخطأ في بدايته أيسر من تحمل نتائجه في نهايته.

وقفات

- إقامة الحجة نعمة، والاستجابة لها نجاة.

- لا تجعل العناد يحرمك من الرجوع إلى الحق.

- ما عند الله يبقى، وما سواه إلى زوال.

- أعظم بناء يشيده الإنسان هو بناء قلبه على التقوى.

تمهيد للفصل السابع عشر

وبعد انقضاء قصة ثمود، يفتح القرآن صفحةً جديدة مع رجلٍ أصبح إمامًا للموحدين، وأبًا للأنبياء، ورمزًا لليقين الذي لا تهزه الفتن؛ إنه إبراهيم عليه السلام، الذي واجه قومه بالحجة، وكسر الأصنام، وعلّم البشرية أن القلب إذا امتلأ بالله، لم يخف سواه.

الفصل السابع عشر

إبراهيم عليه السلام... حين انتصر اليقين على الأصنام

«﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ۝ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾

[الشعراء: ٦٩-٧٠]»

في زمنٍ كثرت فيه الأصنام، واعتاد الناس أن يقدسوا ما صنعته أيديهم، شاء الله أن يخرج من بينهم رجلًا يحمل قلبًا لا يرضى إلا بالحقيقة كان إبراهيم عليه السلام ينظر إلى ما حوله بعين المتأمل، لا بعين المقلد. لم يقبل أن يتبع قومه لمجرد أنهم وجدوا آباءهم على ذلك، بل أخذ يسأل، ويتفكر، ويبحث عن الحق الذي يطمئن إليه القلب وربما يسكت الناس خوفًا من مخالفة المجتمع، لكن إبراهيم عليه السلام علّم الإنسانية أن الباحث عن الحق لا يخاف كثرة المخالفين، لأن الحقيقة لا تُقاس بعدد أتباعها، وإنما بدليلها.

الدليل من القرآن

«﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾

[مريم: ٤٢]»

«﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

[الأنعام: ٧٩]»

الدليل من السنة

قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ إبراهيمَ حرَّم مكةَ ودعا لها...»

وفي هذا بيانٌ لمكانة إبراهيم عليه السلام، وأن أثره في تاريخ الإيمان بقي ممتدًا عبر الأجيال حتى بعثة النبي محمد ﷺ.

القصة

بدأ إبراهيم عليه السلام دعوته بأقرب الناس إليه، فخاطب أباه بأدبٍ ولين، ولم تمنعه مخالفته له من حسن خطابه ثم واجه قومه بالحجة، وسألهم عن حقيقة ما يعبدون، فلم يجدوا جوابًا يقيم البرهان، لأن الباطل مهما طال عمره يبقى عاجزًا أمام الدليل وحين اجتمع الناس في عيدهم، دخل إبراهيم إلى معبد الأصنام، فكسرها جميعًا إلا كبيرها، ليوقظ عقولهم قبل أن يواجههم بكلماته.

فلما عادوا، غضبوا وقالوا: من فعل هذا بآلهتنا؟

فقال لهم في هدوء الواثق:

«﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾

[الأنبياء: ٦٣]»

فسكتت حججهم، لأن الصنم الذي لا يستطيع أن يدافع عن نفسه، لا يمكن أن يكون إلهًا يُعبد.

بين الإيمان والواقع

لا تزال أصنام هذا العصر كثيرة، وإن اختلفت أشكالها فقد يتحول المال إلى صنم إذا استولى على القلب، وقد يصبح المنصب، أو الشهرة، أو شهوة النفس، شيئًا يقدمه الإنسان على طاعة الله ولذلك فإن رسالة إبراهيم عليه السلام لا تزال حية؛ أن يكون الله هو أعظم ما في القلب، وألا ينافسه شيء في المحبة والطاعة.

بين الإيمان وعلم النفس

تشير دراسات علم النفس إلى أن الإنسان يميل إلى اتباع ما اعتاده المجتمع، حتى وإن كان خاطئًا، وهو ما يُعرف بتأثير الجماعة لكن الشخصية السوية هي التي تمتلك الشجاعة لمراجعة المعتقدات والعادات في ضوء الحق، لا في ضوء كثرة الأتباع وقد جسد إبراهيم عليه السلام هذا المعنى بأسمى صورة، فلم يمنعه ضغط المجتمع من السير في طريق التوحيد.

وقفات

- التفكير الصادق طريقٌ إلى اليقين.

- لا تتبع الباطل لأنه شائع.

- قوة المؤمن في حجته قبل قوته في يده.

- إذا امتلأ القلب بالله، سقطت منه كل الأصنام.

تمهيد للفصل الثامن عشر

لم يرض قوم إبراهيم بالحجة، فلجؤوا إلى القوة، وأشعلوا نارًا عظيمة ليحرقوا بها صاحب الكلمة الصادقة. لكن حين يكون الله مع عبده، تتحول النار إلى بردٍ وسلام، وتصبح المعجزة بداية مرحلةٍ جديدة من مسيرة خليل الرحمن.

الفصل الثامن عشر

النار التي أصبحت بردًا وسلامًا... حين حفظ الله خليله

«﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾

[الأنبياء: ٦٩]»

إذا عجز أصحاب الباطل عن مواجهة الحجة، لجؤوا إلى القوة وهذا ما حدث مع إبراهيم عليه السلام، فبعد أن أقام عليهم البرهان، وكشف عجز أصنامهم، لم يجد قومه جوابًا يقنع العقول، فقرروا أن يُسكتوا صوت الحق بالنارجمعوا الحطب أيامًا طويلة، حتى أوقدوا نارًا لم ير الناس مثلها، ثم وضعوا إبراهيم عليه السلام في المنجنيق، لأن شدة اشتعالها كانت تمنعهم من الاقتراب منها كان المشهد في نظر البشر نهاية رجلٍ آمن بالله، لكنه في ميزان السماء كان بداية معجزة خالدة، تعلم البشرية أن الأسباب كلها تخضع لأمر الله.

الدليل من القرآن

«﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾

[الأنبياء: ٦٨]»

«﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾

[الأنبياء: ٦٩-٧٠]»

الدليل من السنة

قال رسول الله ﷺ:

«««حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، قالها إبراهيمُ حين أُلقي في النار، وقالها محمدٌ ﷺ حين قالوا: إن الناس قد جمعوا لكم.»»»

وهذه الكلمة ليست مجرد دعاء، بل إعلانٌ كامل بأن العبد يفوض أمره إلى ربه، ويوقن أن الله خير حافظٍ ونصير.

القصة

وقف إبراهيم عليه السلام ثابت القلب، لم يتراجع عن الحق، ولم يساوم على عقيدته، رغم أنه يعلم أن النار تنتظره ولما أُلقي فيها، لم يأمر الله ملائكته بإطفائها، ولم يُنزل المطر عليها، وإنما خاطب النار نفسها، لأنها مخلوقة من مخلوقاته، فقال:

«﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾»

ففي لحظة واحدة، تحولت النار التي تحرق كل شيء إلى بردٍ لا يؤذي، وسلامٍ لا يضرخرج إبراهيم عليه السلام منها سالمًا، لتبقى المعجزة شاهدًا على أن قدرة الله فوق قوانين الكون كلها، وأنه سبحانه إذا أراد شيئًا قال له: كن، فيكون.

بين الإيمان والواقع

قد لا يُلقى الإنسان في نارٍ حقيقية، لكنه قد يعيش نارًا من الهموم، أو الظلم، أو المرض، أو فقد الأحبة.

وفي تلك اللحظات، يتذكر المؤمن أن الذي نجى إبراهيم من النار، قادر على أن يفرج كربه، ويبدل ضيقه سعة، إذا صدق في توكله عليه فليس المطلوب أن تختفي الشدائد من حياتنا، بل أن يبقى يقيننا بالله أكبر منها.

بين الإيمان وعلم النفس

تشير الدراسات النفسية إلى أن الثقة بالله، ووجود معنى سامٍ للحياة، يساعدان الإنسان على مواجهة الأزمات بثبات، ويقللان من أثر الخوف والقلق والإسلام يغرس هذا المعنى في القلب منذ البداية؛ فالمؤمن يأخذ بالأسباب، لكنه يعلم أن النتائج كلها بيد الله، فيعيش مطمئنًا، لا متواكلًا ولا يائسًا.

وقفات

- لا يمكن للنار أن تحرق من حفظه الله.
- التوكل ليس ترك الأسباب، بل الاعتماد على الله بعد الأخذ بها.
- قد يحاصرك الناس، لكن رحمة الله أوسع من حصارهم.
- المؤمن لا يقيس الأمور بحجم الخطر، بل بعظمة ربه.
- إذا كان الله معك، فلا يضرك من خذلك.

تمهيد للفصل التاسع عشر

وبعد أن نجى الله إبراهيم عليه السلام، بدأت مرحلة جديدة من حياته؛ مرحلة الهجرة في سبيل الله، ثم بناء بيتٍ سيكون قبلةً للمسلمين إلى قيام الساعة. وهناك سيظهر أعظم درسٍ في الطاعة، حين يرفع إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قواعد الكعبة المشرفة، ويعلنان أن أعظم بناءٍ على الأرض هو البناء الذي يقوم على التوحيد.

الفصل التاسع عشر

الكعبة المشرفة... حين ارتفعت قواعد التوحيد

«﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[البقرة: ١٢٧]»

ليست عظمة البناء في ارتفاع جدرانه، ولا في جمال هندسته، وإنما في الغاية التي شُيِّد من أجلها فبعد أن ابتُلي إبراهيم عليه السلام بالهجرة، وترك الأهل، والصبر على الشدائد، جاءت مرحلة جديدة من أعظم مراحل حياته؛ أن يرفع مع ابنه إسماعيل عليه السلام قواعد أول بيتٍ وُضع لعبادة الله في الأرض كانا يعملان بأيديهما، يحملان الحجارة، ويبنيان البيت حجرًا فوق حجر، لكن القلوب كانت معلقة بالله، ولذلك لم يكن دعاؤهما أن يفتخر الناس بما صنعا، بل أن يتقبل الله منهما هذا العمل إنها صورة خالدة تعلم المؤمن أن الإخلاص هو روح كل عمل، وأن قيمة الطاعة ليست فيما يراه الناس، بل فيما يعلمه الله من صدق النية.

الدليل من القرآن

«﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾

[آل عمران: ٩٦]»

«﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾

[الحج: ٢٦]»

الدليل من السنة

قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ هذا البلدَ حرَّمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة.»

فكانت مكة بلدًا مباركًا، وجعل الله الكعبة قبلةً للمؤمنين، يجتمعون إليها بقلوبهم قبل أجسادهم.

القصة

وقف إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في صحراء مكة، لا يملكان مظاهر القوة التي يعرفها الناس، لكنهما امتلكا ما هو أعظم؛ الإيمان الصادق كان إسماعيل يناول أباه الحجارة، وكان إبراهيم يرفع البناء، وكلما ارتفعت القواعد ارتفعت معها الدعوات:

«﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾»

يا لها من لحظة عظيمة؛ نبيان يؤديان عملًا جليلًا، ومع ذلك لا يغتران به، بل يخافان ألا يُقبل منهما وهكذا يعلّمنا القرآن أن المؤمن يجمع بين الاجتهاد في العمل، والخوف من التقصير، فلا يعتمد على عمله، بل على رحمة ربه.

بين الإيمان والواقع

قد يبني الإنسان بيتًا، أو يؤسس أسرة، أو ينجح في مشروع، لكن البركة الحقيقية لا تكون في كثرة الإنجاز، بل في الإخلاص لله فيه وما أكثر الأعمال التي بدت صغيرة في أعين الناس، لكنها عظمت عند الله بسبب صدق أصحابها.

بين الإيمان وعلم النفس

تشير الدراسات إلى أن الأشخاص الذين يربطون أعمالهم برسالة سامية وقيمٍ راسخة يشعرون برضا واستقرار نفسي أكبر من الذين يجعلون النجاح المادي غايتهم الوحيدة ويغرس الإسلام هذا المعنى منذ البداية؛ فالمؤمن يعمل بإتقان، لكنه يجعل رضوان الله هو المقصد الأعلى.

وقفات

- الإخلاص يرفع قيمة العمل مهما كان بسيطًا.
- النجاح الحقيقي هو ما باركه الله وقَبِله.
- اجعل كل إنجاز يقودك إلى مزيد من الشكر، لا إلى الغرور.
- بناء القلوب بالتوحيد أعظم من بناء الجدران بالحجارة.

تمهيد للفصل العشرين

وبعد بناء الكعبة، جاء الابتلاء الأعظم في حياة إبراهيم عليه السلام؛ ابتلاءٌ يمس أعز ما يملك الإنسان، ابنه الذي طال انتظاره. وهناك سيسجل التاريخ أعظم مشهدٍ للطاعة والتسليم، حين امتثل الأب والابن لأمر الله، فكانت قصة الذبح رمزًا خالدًا للإيمان واليقين.

الفصل العشرون

ابتلاء إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه إسماعيل عليه السلام

تمهيد

وبعد أن أتمَّ إبراهيم عليه السلام بناء البيت الحرام، وأرسى مع ابنه إسماعيل قواعد التوحيد والطاعة، جاءت المرحلة الأشد وقعًا في حياته؛ ابتلاءٌ عظيم لم يمس ماله ولا جاهه، وإنما تعلّق بأغلى ما يملك الإنسان، ابنه الذي وهبه الله له بعد طول انتظار. وكان هذا الامتحان الإلهي شاهدًا خالدًا على صدق الإيمان، وكمال التسليم، وعظمة الثقة بالله تعالى.

وفي هذا الفصل نتناول واحدة من أعظم القصص التي خلدها القرآن الكريم، والتي أصبحت رمزًا للطاعة المطلقة، والصبر، واليقين، وجعلها الله أصلًا لشعيرة من أعظم شعائر الإسلام، وهي الأضحية.

أولًا: بشارة الغلام الحليم

بعد سنوات طويلة من الدعاء والانتظار، استجاب الله تعالى لدعاء خليله إبراهيم عليه السلام، فبشره بولد عظيم الخلق والصفات، قال تعالى:

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾

(سورة الصافات: ١٠٠-١٠١).

ووصف الله إسماعيل عليه السلام بالحِلم؛ لأن الحلم من أعظم صفات الأنبياء، وقد ظهرت هذه الصفة بوضوح في موقفه أثناء الابتلاء.

ثانيًا: بداية الابتلاء العظيم

لما بلغ إسماعيل عليه السلام سنًّا يستطيع فيه أن يعين أباه ويشاركه أعماله، جاءت الرؤيا التي كانت اختبارًا لإيمان الأب والابن.

قال تعالى:

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾

(سورة الصافات: ١٠٢).

ورؤيا الأنبياء وحي من الله تعالى، ولذلك لم يتردد إبراهيم في تنفيذ ما أُمر به، لكنه خاطب ابنه برفق ورحمة، ليعلمنا أن الحوار من أخلاق الأنبياء.

ثالثًا: استجابة إسماعيل عليه السلام

كان جواب إسماعيل عليه السلام من أعظم كلمات الإيمان في التاريخ.

قال تعالى:

﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾

(سورة الصافات: ١٠٢).

فلم يعترض، ولم يخف، ولم يتردد، بل أيقن أن أمر الله خير كله، وأن رضاه أعظم من كل شيء وفي هذا الموقف تظهر التربية الإيمانية التي غرسها إبراهيم في ابنه منذ صغره، حتى أصبح مستعدًا للتضحية بنفسه طاعة لله تعالى.

رابعًا: التسليم الكامل لله

يصور القرآن الكريم تلك اللحظات المؤثرة بقوله تعالى:

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾

(سورة الصافات: ١٠٣).

أي استسلما جميعًا لأمر الله، فلم يبق في القلب تردد، ولا في النفس اعتراض وكان هذا أعظم مشهد يجسد حقيقة الإسلام، فالاستسلام لله هو جوهر الدين، ومنزلة لا يبلغها إلا المؤمنون الصادقون.

خامسًا: الفرج بعد الابتلاء

عندما تحقق المقصود من الاختبار، جاء الفرج من الله سبحانه.

قال تعالى:

﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾

(سورة الصافات: ١٠٤-١٠٦).

فلم يكن المقصود ذبح إسماعيل، وإنما كان المقصود إثبات صدق الطاعة، وقد نجح إبراهيم وابنه في هذا الامتحان العظيم.

سادسًا: الفداء العظيم

قال تعالى:

﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾

(سورة الصافات: ١٠٧)

فأنزل الله كبشًا عظيمًا ليكون فداءً لإسماعيل عليه السلام، وليتحول هذا الحدث إلى شعيرة باقية يتقرب بها المسلمون إلى الله في عيد الأضحى وقد دل هذا الفداء على رحمة الله بعباده، وأنه سبحانه لا يريد تعذيبهم، وإنما يريد اختبار صدق إيمانهم.

سابعًا: الثناء الإلهي على إبراهيم

كرّم الله خليله بعد نجاحه في هذا الابتلاء فقال:

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾

(سورة الصافات: ١٠٨-١١٠).

فصار إبراهيم عليه السلام إمامًا للموحدين، وقدوةً لكل مؤمن يسعى إلى طاعة الله مهما عظمت التكاليف.

ثامنًا: الدروس والعبر

تحمل هذه القصة معاني إيمانية وتربوية عظيمة، منها:

* أن محبة الله يجب أن تكون فوق كل محبة.

* أن الابتلاء دليل على محبة الله لعبده إذا صبر واحتسب.

* أن الطاعة الصادقة تسبق الفرج دائمًا.

* أن حسن تربية الأبناء يثمر إيمانًا وصبرًا عند الشدائد.

* أن الفرج يأتي بعد اكتمال الصبر والثبات.

* أن التضحية في سبيل الله لا تضيع، بل يعقبها التكريم والجزاء.

* أن شعيرة الأضحية تذكر المسلمين كل عام بمعاني الإخلاص والطاعة والفداء.

تاسعًا: الأضحية وارتباطها بقصة إبراهيم

شرع الله تعالى للمسلمين الأضحية إحياءً لذكرى هذا الموقف العظيم، فهي ليست مجرد ذبحٍ للأنعام، بل عبادة يتقرب بها المسلم إلى ربه، ويستحضر فيها معاني الإيمان والتسليم والإخلاص.

قال تعالى:﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ (سورة الحج: ٣٧).

فالغاية من الأضحية تحقيق التقوى، وإظهار الامتثال لأمر الله، وإحياء سنة إبراهيم عليه السلام.

خاتمة الفصل

تُعد قصة ذبح إسماعيل عليه السلام من أعظم مشاهد الإيمان في القرآن الكريم، فقد اجتمع فيها صدق الأب، وطاعة الابن، ورحمة الرب سبحانه وتعالى. ولم تكن هذه الحادثة مجرد واقعة تاريخية، بل أصبحت مدرسةً تربوية خالدة تعلم المؤمن أن رضا الله فوق كل رغبة، وأن الفرج يأتي بعد الصبر، وأن من سلَّم أمره لله موقنًا بحكمته، جعل الله له من كل ضيق مخرجًا، ومن كل ابتلاء رفعةً وكرامة. ولذلك بقيت هذه القصة نبراسًا للمؤمنين، يقتبسون منها معاني اليقين، والإخلاص، والثبات، والتضحية في سبيل الله.

الفصل الحادي والعشرون

يوسف عليه السلام... من ظلمة البئر إلى نور التمكين

«﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف: ٣]»

قد يظن الإنسان أن طريق الصالحين مفروشٌ بالراحة، لكن سنة الله جرت أن يسبق التمكينَ ابتلاءٌ، وأن يسبق الفرجَ صبرٌ طويل ومن أعظم من تجلت في حياته هذه السنة نبي الله يوسف عليه السلام؛ فقد بدأت قصته وهو طفلٌ صغير، وانتهت وهو عزيزٌ على أرض مصر، وبين البداية والنهاية محطاتٌ من الألم، والخيانة، والصبر، والعفة، واليقين إنها قصة تعلمنا أن الله قد يغيّر حياة الإنسان كلها، لكن في الوقت الذي يختاره سبحانه، لا في الوقت الذي يختاره العبد.

الدليل من القرآن

«﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]»

«﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]»

الدليل من السنة

قال رسول الله ﷺ:

«الكريمُ ابنُ الكريمِ ابنُ الكريمِ ابنُ الكريمِ: يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ.

فجمع يوسف عليه السلام شرف النبوة، وكرم النسب، وكمال الأخلاق، فكان قدوةً في الصبر والعفة والإحسان.

القصة

رأى يوسف عليه السلام رؤيا عظيمة، فأخبر بها أباه يعقوب عليه السلام، فعلم أنها بشارة من الله بمستقبل كريم، ونصحه ألا يقصها على إخوته؛ خشية أن يحملهم الحسد على ما لا يُحمد.

لكن الحسد إذا استولى على القلب، أفسد البصيرة اجتمع الإخوة، واتفقوا على إبعاد يوسف، فألقوه في غيابة البئر، وظنوا أنهم أنهوا قصته غير أن تدبير الله كان أعظم من تدبيرهم فالبئر لم يكن نهاية، بل كان أول طريق التمكين. مرّت قافلة، فاستخرجت يوسف، ثم بيع في مصر، لتبدأ مرحلة جديدة من حياته، يقودها لطف الله الخفي.

بين الإيمان والواقع

قد تمر في حياتك بلحظات تشبه البئر؛ تشعر فيها بالوحدة، أو الظلم، أو ضياع الأحلام لكن المؤمن يعلم أن الله قد يجعل من أصعب المحطات بدايةً لأعظم النعم فلا تحكم على حياتك من فصلٍ واحد، فالله يكتب القصة كاملة، ونحن لا نرى إلا صفحةً منها.

بين الإيمان وعلم النفس

تشير الدراسات إلى أن الأشخاص الذين ينظرون إلى الأزمات على أنها فرص للتعلم والنمو، يكونون أكثر قدرة على تجاوز المحن واستعادة توازنهم النفسي ويقدم يوسف عليه السلام نموذجًا رفيعًا لهذا المعنى؛ فلم يسمح للمحنة أن تكسر نفسه، بل بقي ثابتًا، واثقًا بربه، حتى تحول البلاء إلى طريقٍ للرفعة.

وقفات

- قد يخفي الله الخير في مكانٍ تظنه نهاية.
- لا تجعل ظلم الناس يطفئ ثقتك بعدل الله.
- الحسد يحرق صاحبه قبل أن يؤذي غيره.
- تدبير الله ألطف من كل ما نتخيله.
- إذا أغلق الناس بابًا، فتح الله أبوابًا لم تكن في الحسبان.

تمهيد للفصل الثاني والعشرين

لكن رحلة يوسف عليه السلام لم تنتهِ بالخروج من البئر؛ فقد واجه ابتلاءً آخر أشد وقعًا على النفس، حين فُتن في بيته ودُعي إلى المعصية، فاختار طاعة الله على شهوة النفس، لتبقى قصته أعظم مثالٍ في العفة والثبات. الفصل الثاني والعشرون

يوسف عليه السلام... العفة التي صنعت التمكين

«﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣]»

ليست كل المعارك تُخاض بالسيوف، فهناك معارك يخوضها الإنسان مع نفسه، وقد تكون أشد من مواجهة الأعداء لقد نشأ يوسف عليه السلام بعيدًا عن أهله، وعاش في بيت العزيز، حتى أصبح شابًا كامل الخلق والخِلقة، فكانت الفتنة عظيمة، والابتلاء شديدًا.

اجتمعت أسباب المعصية؛ المكان المغلق، والسلطان، والدعوة الصريحة، ومع ذلك لم يرَ يوسف في كل ذلك إلا نظر الله إليه، فكانت كلمته الخالدة:«﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾»

كلمة قصيرة، لكنها كانت أعظم من كل إغراء، لأنها خرجت من قلب امتلأ بمراقبة الله.

الدليل من القرآن

«﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤]»

«﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]»

الدليل من السنة

قال رسول الله ﷺ:

«سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله... ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله.»

وهذا الحديث يجعل موقف يوسف عليه السلام نموذجًا خالدًا لكل من يترك الحرام خوفًا من الله.

القصة

لما رفض يوسف المعصية، لم يتحول الابتلاء إلى راحة، بل ازداد شدة اتهم ظلمًا، وسُجن بغير جرم، لكن السجن لم يطفئ نور الإيمان في قلبه، بل جعله مكانًا للدعوة إلى الله كان يعامل الناس بإحسان، ويبين لهم التوحيد قبل أن يفسر لهم الرؤى، لأنه يعلم أن هداية القلوب أعظم من حل مشكلات الدنياوهكذا أثبت يوسف أن المؤمن لا تتغير مبادئه بتغير الظروف؛ فهو مستقيم في القصر، ومستقيم في السجن، ومستقيم حين يُمكَّن في الأرض.

بين الإيمان والواقع

قد يدفع الإنسان ثمن تمسكه بالمبادئ، وقد يخسر فرصة، أو منصبًا، أو مصلحة لأنه رفض الحرام لكن ما يتركه العبد لله، يعوضه الله خيرًا منه، ولو بعد حين فالسجن الذي دخله يوسف ظلمًا، كان الطريق الذي أوصله إلى قيادة مصر، لأن تدبير الله أعظم من تدبير البشر.

بين الإيمان وعلم النفس

تشير الدراسات إلى أن القدرة على تأجيل الشهوات وضبط النفس من أهم الصفات المرتبطة بالنجاح والاستقرار النفسي.

وقد قدم يوسف عليه السلام أرقى نموذج لهذا المعنى؛ فلم يسمح لرغبة عابرة أن تهدم مستقبله، بل قدم رضا الله على كل شيء، فكانت العاقبة له.

وقفات

- مراقبة الله أقوى من كل رقابة بشرية.
- العفة ليست حرمانًا، بل كرامة يحفظ الله بها عبده.
- قد يكون البلاء جسرًا إلى أعظم النعم.
- لا تجعل لذة لحظة تهدم سعادة العمر.
- من ترك شيئًا لله، عوضه الله خيرًا منه.

تمهيد للفصل الثالث والعشرين

ومرت السنوات، حتى جاء اليوم الذي أخرج الله فيه يوسف من السجن، لا ليعود رجلًا عاديًا، بل ليصبح عزيز مصر، ويجتمع شمله بأهله، فتكتمل واحدة من أعظم قصص الصبر والتمكين في تاريخ البشرية. الفصل الثالث والعشرون

يوسف عليه السلام... حين تحوّل الألم إلى تمكين

«﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾

[يوسف: ٥٦]»

قد يظن الإنسان أن الظلم إذا وقع عليه فقد انتهت فرصه، وأن الأبواب إذا أُغلقت فلن تُفتح من جديد، لكن قصة يوسف عليه السلام تعلمنا أن الله يملك مفاتيح الأبواب كلها خرج يوسف من السجن بعد سنوات من الصبر، لكن خروجه لم يكن خروج إنسانٍ مكسور، بل خروج رجلٍ هيأه الله لتحمل مسؤولية عظيمة فالمحنة التي مر بها لم تكن لإهلاكه، بل لبناء شخصيته، وتعليمه الصبر، والحكمة، والرحمة، حتى يكون قادرًا على حمل الأمانة.

الدليل من القرآن

«﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾

[يوسف: ٥٤]»

«﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]»

الدليل من السنة

قال رسول الله ﷺ:

«عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير...»

فالمؤمن يرى في كل أقدار الله حكمة، فإن أصابته نعمة شكر، وإن أصابته شدة صبر، وفي الحالتين هو على خير.

القصة

رأى ملك مصر رؤيا، وعجز من حوله عن تفسيرها، حتى وصل الأمر إلى يوسف عليه السلام في السجن ففسر الرؤيا بعلمٍ وهبه الله له، ولم يكتفِ بالتفسير، بل قدم خطةً لإنقاذ البلاد من سنوات القحط القادمة خرج يوسف من السجن بعلمه وأمانته، لا بانتقامه ممن ظلمه، فاختاره الملك لمكانة عظيمة، وأصبح مسؤولًا عن خزائن مصروهنا يظهر جمال الأخلاق؛ فقد كان قادرًا على رد الإساءة، لكنه اختار الحكمة والعفوثم جاء اليوم الذي جمعه الله فيه بأخوته بعد سنوات طويلة، وهم لا يعرفونه، فأظهر يوسف أسمى درجات الصفح حين قال:

«﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٩٢]»

لم يجعل النصر بابًا للانتقام، بل جعله بابًا للعفو.

بين الإيمان والواقع

أحيانًا يمر الإنسان بمراحل لا يفهم سببها؛ خسارة، تأخير، رفض، أو ظلم لكن قصة يوسف تعلمنا ألا نحكم على الطريق قبل نهايته، فقد يكون ما يؤلمك اليوم هو الذي يهيئك لمكانة لم تكن تتوقعها فالإنسان يرى اللحظة، أما الله فيرى الرحلة كاملة.

بين الإيمان وعلم النفس

توضح دراسات المرونة النفسية أن الإنسان يستطيع تحويل التجارب الصعبة إلى مصادر للنضج والقوة عندما يملك معنى واضحًا، وقدرة على التسامح، ونظرة مستقبلية متفائلة وقصة يوسف تقدم نموذجًا متكاملًا؛ فلم يسمح للألم أن يصنع منه شخصًا قاسيًا، بل خرج منه أكثر حكمة ورحمة.

وقفات

- لا تجعل الماضي يسجنك كما سُجن يوسف في السجن.
- النجاح الحقيقي هو أن تنتصر دون أن تفقد أخلاقك.
- القوة مع القدرة على العفو هي أعظم مراتب القوة.
- قد يؤخر الله عنك شيئًا ليعطيك ما هو أعظم.
- الصبر مع الإيمان يصنع نهايات لا يتوقعها الإنسان.

تمهيد للفصل الرابع والعشرين

وبعد رحلة يوسف عليه السلام، ننتقل إلى نبيٍ آخر ضرب أروع الأمثلة في الصبر على المرض والابتلاء؛ إنه أيوب عليه السلام، الذي بقي قلبه متعلقًا بالله رغم طول الاختبار، ليعلّم البشرية أن الصبر ليس الفصل الرابع والعشرون

أيوب عليه السلام... حين صبر الجسد وبقي القلب حيًّا

«﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

[الأنبياء: ٨٣]»

ليست قيمة الإنسان فيما يملكه من صحةٍ أو مالٍ أو مكانة، وإنما فيما يبقى في قلبه حين تُسلب منه بعض النعم ومن أعظم النماذج التي تعلم البشرية معنى الصبر نبي الله أيوب عليه السلام؛ فقد ابتُلي في جسده وماله وأهله، لكنه لم يفقد أعظم ما يملك: حسن ظنه بالله لم يكن صبر أيوب عليه السلام صبرًا خاليًا من الألم، فالإنسان بطبيعته يتألم ويحزن، لكن الفرق أن المؤمن لا يجعل الألم يقطعه عن ربه.

الدليل من القرآن

«﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾

[ص: ٤١]»

«﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ۖ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾

[الأنبياء: ٨٤]»

الدليل من السنة

قال رسول الله ﷺ:

«أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل...»

فليس البلاء دائمًا علامة غضب، فقد يكون رفعةً للدرجات، وتطهيرًا للقلوب، وزيادةً في القرب من الله.

القصة

كان أيوب عليه السلام من أهل النعمة، ثم جاءه الابتلاء، ففقد كثيرًا مما كان عنده من أسباب الراحة، وطال عليه الاختبار.

ومع ذلك لم يتحول قلبه إلى اعتراض، ولم ينقطع لسانه عن ذكر الله.

لم يقل: لماذا أنا؟ ولم يظن أن البلاء دليل على ترك الله له، بل بقي مؤمنًا بأن رحمة الله أوسع من كل ألم ثم جاء الفرج بعد الصبر، فأمره الله أن يضرب الأرض برجله، فخرج له الماء، وكان فيه شفاء ورحمة فأعاد الله إليه صحته وأهله، وجعل قصته آيةً لكل من يمر بضيق.

بين الإيمان والواقع

يمر الإنسان في حياته بابتلاءات مختلفة؛ مرض، فقد، تأخر أمنية، أو ظروف لا يفهم حكمتها لكن قصة أيوب تعلمنا أن الإنسان لا يُقاس بما أصابه، بل بكيفية مواجهته لما أصابه فقد يملك الإنسان كل شيء ويخسر الطمأنينة، وقد يفقد بعض الأشياء ويبقى قلبه غنيًا بالإيمان.

بين الإيمان والطب والنفس

توضح الدراسات الطبية والنفسية أن الحالة النفسية الإيجابية، والشعور بالمعنى، والدعم الروحي، تساعد الإنسان على التعامل مع المرض والأزمات بصورة أفضل.

والإيمان لا يلغي الألم، لكنه يمنح الإنسان قوة داخلية تساعده على تحمله، وتجعله يرى أن وراء الابتلاء حكمة ورحمة.

وقفات

- الصبر ليس أن لا تتألم، بل أن لا تفقد ثقتك بالله.
- البلاء قد يكون طريقًا إلى القرب من الله.
- لا تحكم على رحمة الله من شدة اللحظة.
- الدعاء في وقت الضيق عبادة وثقة، وليس علامة ضعف.
- بعد العسر يأتي الفرج بإذن الله.

تمهيد للفصل الخامس والعشرين

ومن مدرسة الصبر ننتقل إلى مدرسة أخرى من مدارس الإيمان؛ قصة نبيٍ ابتلعه البحر، ثم أخرجه الله برحمته، ليعلم الإنسان أن أبواب الرجوع إلى الله لا تُغلق مهما ضاقت السبل. إنها قصة يونس عليه السلام. غياب الألم، بل ثبات القلب مع الله.

الفصل الخامس والعشرون

يونس عليه السلام... حين أنقذته كلمة التوبة

«﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

[الأنبياء: ٨٧]»

قد يمر الإنسان بلحظة ضعف، أو يتخذ قرارًا لم يكن الأفضل، لكن رحمة الله تبقى أوسع من كل خطأ، وباب العودة إليه لا يُغلق ما دام القلب حيًّا ومن أعظم القصص التي تجسد معنى الرجوع إلى الله قصة نبي الله يونس عليه السلام، الذي علّم البشرية أن الإنسان مهما ضاقت به الدنيا، فإن طريق الله يبقى مفتوحًا لم تكن نجاته بقوته، ولا بذكائه، ولا بقدرته على تغيير الظروف، بل كانت بكلمة صدق خرجت من قلبٍ عرف ضعفه أمام عظمة الله.

الدليل من القرآن

«﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾

[الصافات: ١٤٣-١٤٤]»

«﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]»

الدليل من السنة

قال رسول الله ﷺ:

«دعوةُ ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فإنه لم يدعُ بها رجلٌ مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له.»

القصة

أرسل الله يونس عليه السلام إلى قومه يدعوهم إلى الإيمان، فلما طال عليه تكذيبهم خرج عنهم قبل أن يأتيه الإذن، فكان ذلك ابتلاءً له ركب السفينة، واضطرب البحر، فكان من قدر الله أن أُلقي في البحر، فابتلعه الحوت بأمر الله وجد يونس عليه السلام نفسه في ظلمات متتابعة، ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت.

وفي تلك اللحظة لم يتوجه إلا إلى الله، فقال:

«﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾»

فجاءت الرحمة، واستجاب الله له، وأخرجه من البلاء، وأنبت عليه من رحمته ما يعينه.

بين الإيمان والواقع

قد يشعر الإنسان أحيانًا أنه محاصر بالمشكلات، وكأن الأبواب كلها مغلقة لكن قصة يونس تعلمنا أن أقرب طريق للفرج هو الرجوع إلى الله، والاعتراف بالتقصير، وطلب العون منه فالإنسان لا يكون قويًا لأنه لا يخطئ، بل لأنه يعرف طريق العودة حين يخطئ بين الإيمان وعلم النفس

تشير الدراسات النفسية إلى أن الاعتراف بالمسؤولية عن الأخطاء، بدل إنكارها أو الهروب منها، يساعد الإنسان على التغيير والنموالتوبة في الإسلام ليست مجرد شعور بالندم، بل هي عملية إصلاح تعيد للإنسان توازنه، وتفتح له بداية جديدة.

وقفات

- لا يوجد ضيق أكبر من رحمة الله.
- الاعتراف بالخطأ بداية الإصلاح.
- الدعاء ليس آخر الحلول، بل هو أعظم أسباب القوة.
- مهما ابتعد الإنسان، فإن طريق الرجوع إلى الله قريب.
- من صدق مع الله، جعل الله له مخرجًا.

تمهيد للفصل السادس والعشرين

وبعد أن تعرفنا على نماذج الصبر واليقين والتوبة، ننتقل إلى نبيٍ واجه أعظم طغيان عرفه التاريخ؛ رجل وقف أمام ملكٍ ادعى القوة المطلقة، فكانت قصته درسًا خالدًا في مواجهة الظلم والثبات على الحق: موسى عليه السلام وفرعون.

الفصل السادس والعشرون

موسى عليه السلام... حين وقف الحق أمام الطغيان

«﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾

[القصص: ٥]»

عندما يصل الظلم إلى ذروته، يظن الطغاة أنهم امتلكوا كل شيء، وأن قوتهم لا تُهزم، وأن أصوات المظلومين لن تصل إلى أحد لكن سنن الله في التاريخ تؤكد أن الظلم مهما طال، له نهاية، وأن القوة الحقيقية ليست في الجيوش والقصور، بل في الثبات على الحق ومن أعظم قصص المواجهة بين الحق والباطل قصة موسى عليه السلام مع فرعون؛ قصة طفلٍ حفظه الله من بطش الطاغية، ثم عاد بعد سنوات ليقف أمامه رسولًا يحمل رسالة التوحيد.

الدليل من القرآن

«﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤]»

«﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[طه: ٤٤]»

الدليل من السنة

قال رسول الله ﷺ:

«أفضلُ الجهاد كلمةُ عدلٍ عند سلطانٍ جائر.»

فإظهار الحق بالحكمة والشجاعة من أعظم الأعمال التي تحفظ كرامة الإنسان.

القصة

ولد موسى عليه السلام في زمن كان فرعون يظلم بني إسرائيل ويقتل أبناءهم، خوفًا من زوال ملكه لكن تدبير الله كان أعظم من خوف فرعون، فأوحى الله إلى أم موسى أن تضعه في اليم، فالتقطه آل فرعون ليكون في بيت من كان يبحث عن قتله نشأ موسى في قصر فرعون، ثم اختاره الله بعد ذلك ليحمل رسالة عظيمة؛ أن يدعو فرعون نفسه إلى عبادة الله ذهب موسى عليه السلام ومعه أخوه هارون، وقالا له بلطفٍ وحكمة:

«﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾»لكن الكبر منع فرعون من قبول الحق، وادعى ما ليس له، وظن أن ملكه سيحميه من أمر الله.

بين الإيمان والواقع

قد لا يواجه الإنسان فرعونًا حقيقيًا، لكنه قد يواجه أشكالًا من الطغيان؛ ظلمًا، أو ضغطًا، أو خوفًا يمنعه من قول الحق وتعلمنا قصة موسى أن المؤمن لا يقاس بقوة من يواجهه، بل بقوة يقينه بالله فالذي يعتمد على الله لا يكون وحيدًا، حتى لو وقف أمام أقوى الناس.

بين الإيمان وعلم النفس

توضح دراسات النفس الإنسانية أن الشعور بالمعنى والهدف يساعد الإنسان على الثبات أمام الضغوط، ويمنحه قدرة أكبر على مواجهة الخوف وموسى عليه السلام مثال عظيم للثبات؛ فقد واجه تهديدات فرعون، لكنه كان يعلم أن مهمته ليست الانتصار لنفسه، بل أداء الأمانة التي كلفه الله بها.

وقفات

- الطغيان يبدأ حين ينسى الإنسان أنه عبدٌ لله.
- القوة بلا رحمة تتحول إلى ظلم.
- الحق يحتاج إلى قلوب شجاعة تحمله.
- الله يدبر لعباده بطرق لا تخطر لهم على بال.
- لا تخف من عظمة الباطل، بل تذكر عظمة من بيده الأمر كله.

تمهيد للفصل السابع والعشرين

تستمر رحلة موسى عليه السلام مع فرعون، حيث تبدأ المواجهة الكبرى بين المعجزة والكبرياء، وبين آيات الله وغرور الإنسان، حتى يأتي اليوم الذي يظهر فيه الفرق بين من وثق بقوة الله ومن وثق بقوته هو.

الفصل السابع والعشرون

موسى عليه السلام... حين سقط سحر الوهم أمام الحقيقة

«﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ۝ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾

[طه: ٧٠]»

حين يعجز الباطل عن مواجهة الحق، يحاول أن يخدع العيون، وأن يصنع صورةً توهم الناس بالقوة وهذا ما فعله فرعون؛ فقد أراد أن يثبت للناس أن ملكه لا يُهزم، فجمع السحرة ليواجهوا معجزة موسى عليه السلام، ظنًا منه أن الأمر مجرد صراعٍ بين قدرات بشرية لكن الفرق بين المعجزة والسحر أن المعجزة أمرٌ من الله، أما السحر فمهما بدا قويًا فهو خداع محدود.

الدليل من القرآن

«﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۝ قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾

[طه: ٦٥-٦٦]»

«﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾

[طه: ٦٦-٦٨]»

الدليل من السنة

قال رسول الله ﷺ:

«اجتنبوا السبع الموبقات...» وذكر منها: السحر.»

فالسحر في الإسلام أمر محرّم، لأنه قائم على الباطل والخداع والإضرار بالناس.

القصة

جمع فرعون أمهر السحرة في يومٍ عظيم، وجاء الناس يشاهدون المواجهة ألقى السحرة حبالهم وعصيهم، فخيّل للناس أنها تتحرك، وانتشر الوهم بين الحاضرين ثم ألقى موسى عصاه بأمر الله، فتحولت إلى آية ظاهرة، فابتلعت ما صنعوا في تلك اللحظة أدرك السحرة الحقيقة؛ فهم أكثر الناس معرفةً بالسحر، وعرفوا أن ما رأوه ليس من جنس ما يعرفون. فسقطت أقنعة الوهم، وسجدوا لله قائلين:««﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾»»لم يخافوا تهديد فرعون، لأن الحقيقة حين تدخل القلب تجعل الإنسان أقوى من الخوف.

بين الإيمان والواقع

في حياة الإنسان اليوم صور كثيرة من الوهم؛ قد ينجح الباطل في جذب الأنظار، وقد تبدو الأكاذيب أقوى من الحق لفترة لكن الحقيقة لا تحتاج إلى تزيين طويل، لأنها ثابتة بذاتها وقد يخسر الإنسان شيئًا بسبب تمسكه بالحق، لكنه يكسب احترام نفسه ورضا الله.

بين الإيمان وعلم النفس

تشير الدراسات النفسية إلى أن الإنسان قد يتأثر بما يراه منتشرًا أو بما يقدمه أصحاب النفوذ، حتى لو لم يكن صحيحًا، وهذا ما يسمى بتأثير الجماعة والصورة الاجتماعية لكن الوعي والتفكير النقدي يساعدان الإنسان على التمييز بين الحقيقة والمظهر وقد قدم السحرة مثالًا عظيمًا؛ فقد انتقلوا من أتباع للسلطة إلى أصحاب يقين بمجرد أن عرفوا الحقيقة.

وقفات

- ليس كل ما يلمع حقيقة.
- المعرفة الصادقة تقود إلى الإيمان.
- القلب الذي يعرف الحق لا يخاف تهديد البشر.
- قد يكون الإنسان بعيدًا عن الهداية لحظة، ثم يصبح من أهل الحق حين يفتح الله قلبه.
- قوة الإيمان تهزم أقوى صور الوهم.

تمهيد للفصل الثامن والعشرين

بعد سقوط حجة السحرة، ازداد فرعون عنادًا، فبدأت مرحلة جديدة من الابتلاءات والآيات، حتى يأتي أمر الله بخروج موسى عليه السلام وبني إسرائيل، وتبدأ واحدة من أعظم لحظات النجاة في التاريخ: انشقاق البحر وغرق الطغيان.

الفصل الثامن والعشرون

موسى عليه السلام... حين انشق البحر وسقط الطغيان

«﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾

[الشعراء: ٦٣]»

حين يبلغ الظلم نهايته، يأتي وعد الله الذي لا يتخلف فقد أصر فرعون على الكبر، ورأى الآيات واحدة بعد أخرى، لكنه اختار العناد بدل الإيمان، والغرور بدل الخضوع للحق وفي المقابل كان موسى عليه السلام ومن معه من المؤمنين يعيشون لحظةً من أصعب لحظات الطريق؛ أمامهم البحر، وخلفهم جيش فرعون، فظن الناس أن النهاية قد اقتربت لكن المؤمن يرى ما وراء الأسباب، ويعلم أن قدرة الله لا تحدها حدود.

الدليل من القرآن

«﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾

[الشعراء: ٦١-٦٢]»

«﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ۝ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾

[الشعراء: ٦٥-٦٦]»

الدليل من السنة

قال رسول الله ﷺ عن يوم عاشوراء:

«هذا يومٌ عظيمٌ أنجى الله فيه موسى وقومه، وغرّق فرعون وقومه...»

ولهذا صام النبي ﷺ هذا اليوم شكرًا لله تعالى.

القصة

خرج موسى عليه السلام ببني إسرائيل بأمر الله، فلحق بهم فرعون بجنوده، يريد إعادتهم إلى الذل الذي عاشوه سنوات طويلة وصل المؤمنون إلى البحر، فقال بعضهم من شدة الخوف:

«﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾»

لكن موسى عليه السلام أجاب بكلمة عظيمة:

«﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾»

لم يكن يرى طريق النجاة بعينيه، لكنه كان يراه بقلبه فأمره الله أن يضرب البحر بعصاه، فانفلق البحر طريقًا، ومشى موسى ومن معه بين الماء بأمان أما فرعون، الذي ظن أن سلطانه يحميه، فقد تبعهم، فلما دخل البحر جاء أمر الله، وانتهى طغيان الرجل الذي قال يومًا:«﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾»

بين الإيمان والواقع

يمر الإنسان أحيانًا بلحظات يشعر فيها أن كل الطرق مغلقة، وأن الحلول مستحيلة لكن قصة موسى تعلمنا أن نهاية الطريق التي يراها الإنسان قد تكون بداية الفرج الذي يقدره الله فلا تجعل صعوبة الظروف أكبر من ثقتك بالله.

بين الإيمان وعلم النفس

توضح الدراسات النفسية أن اليقين بوجود هدف ومعنى يساعد الإنسان على تحمل الضغوط الشديدة، ويمنحه قدرة على اتخاذ قرارات أكثر هدوءًا.

وقول موسى عليه السلام:

«﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾»

يمثل أعلى درجات الثقة بالله مع الأخذ بالأسباب، فهو لم يقف عاجزًا، بل سار عندما جاءه أمر الله.

وقفات

- عندما تنتهي قدرة الإنسان تبدأ قدرة الله.

- لا تقِس المستقبل بما تراه في اللحظة الصعبة.

- الطغيان مهما طال له نهاية.

- النجاة ليست دائمًا في غياب الخطر، بل في معية الله وسط الخطر.

- من وثق بالله وجد طريقًا حيث لا يرى الناس إلا الجدار.

تمهيد للفصل التاسع والعشرين

بعد نجاة موسى عليه السلام وقومه، بدأت مرحلة جديدة؛ مرحلة بناء الأمة وتعليمها، وفيها ظهرت دروس عظيمة في الصبر والطاعة، وكذلك أخطاء الإنسان حين ينسى النعمة. ومن هنا تبدأ قصة العهد مع الله، والألواح، وابتلاء بني إسرائيل بالعجل.

الفصل التاسع والعشرون

موسى عليه السلام... حين تختبر النعمة قلوب الناس

«﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾

[المائدة: ٢٠]»

بعد أن نجّى الله موسى عليه السلام وقومه من فرعون، بدأت مرحلة جديدة؛ مرحلة الانتقال من حياة الذل والخوف إلى حياة المسؤولية والاختبار فالنجاة من البلاء ليست نهاية الطريق، بل بداية امتحان جديد: هل يحفظ الإنسان النعمة أم ينساها؟

وقد علّم الله بني إسرائيل أن الحرية الحقيقية ليست مجرد الخروج من القيد، بل أن يتحرر القلب من عبودية الهوى، وأن يرتبط بالله وحده

الدليل من القرآن

«﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾

[الأعراف: ١٤٢]»

«﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾

[الأعراف: ١٤٨]»

الدليل من السنة ....قال رسول الله ﷺ:

«إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم.فالقيمة الحقيقية للإنسان ليست فيما يملكه من مظاهر، بل فيما يحمله قلبه من إيمان وصدق.

القصة

ذهب موسى عليه السلام لميقات ربه، وترك أخاه هارون عليه السلام على قومه وفي غيابه، جاء السامري فصنع لهم عجلًا من الذهب، ودعاهم إلى عبادته، رغم أنهم رأوا بأعينهم معجزات الله، وشاهدوا كيف نجاهم من فرعون وهنا يظهر ضعف الإنسان حين ينسى مصدر النعمة، ويتعلق بما تراه العين بدل ما يطمئن إليه القلب عاد موسى عليه السلام، فغضب لما رأى من انحراف قومه، ودعاهم إلى العودة إلى التوحيد، فكانت الحادثة درسًا للأجيال: أن الإيمان يحتاج إلى ثبات، وأن القلب قد يضعف إذا لم يحفظ صلته بالله.

بين الإيمان والواقع

قد لا يعبد الإنسان صنمًا من ذهب، لكنه قد يجعل في حياته أشياء تأخذ مكان الله في قلبه؛ كالتعلق المفرط بالمال، أو الشهرة، أو رضا الناس والإنسان يحتاج دائمًا أن يسأل نفسه: ما الشيء الذي إذا فقدته شعرت أن حياتك انتهت؟فما جعل الإنسان حياته متوقفة عليه قد يتحول إلى تعلق يضعف قلبه.

بين الإيمان وعلم النفس

تشير الدراسات النفسية إلى أن الإنسان يميل إلى التعلق بالأشياء التي تمنحه شعورًا بالأمان، وقد يتحول هذا التعلق إلى اعتماد مفرط إذا غاب التوازن والإيمان يمنح الإنسان مركزًا ثابتًا؛ فيستمتع بالنعم دون أن يصبح عبدًا لها.

وقفات

- النعمة تحتاج إلى شكر حتى تدوم.
- أخطر أنواع الضياع أن ينسى الإنسان من أنقذه.
- القلب إذا لم يُملأ بالحق، بحث عن بديل.
- الحرية الحقيقية هي التحرر من عبودية كل شيء سوى الله.
- الثبات على الإيمان يحتاج إلى مراجعة دائمة للنفس

تمهيد للفصل الثلاثين

تستمر رحلة موسى عليه السلام مع قومه، حيث تظهر دروس جديدة في الصبر والقيادة والتعامل مع ضعف الإنسان، ثم ننتقل بعد ذلك إلى مرحلة جديدة من تاريخ الأنبياء، وصولًا إلى قصة نبيٍ جمع بين الملك والحكمة والعبادة: داود عليه السلام.

خاتمة الكتاب

من بداية الخلق... إلى طريق العودة إلى الله

لم تكن هذه الرحلة رحلةً بين صفحات كتاب، بل كانت رحلةً في معنى الإنسان نفسه؛ من أين جاء؟ ولماذا خُلق؟ وإلى أين يمضي؟

بدأنا من اللحظة التي لم يكن فيها للإنسان أثر، حين كان الأمر كله لله سبحانه وتعالى، ثم انتقلنا عبر قصص الأنبياء الذين حملوا أعظم رسالة عرفتها البشرية: أن يعرف الإنسان خالقه، ويهتدي إلى الطريق الذي يصلح قلبه وحياته رأينا في آدم عليه السلام معنى التوبة بعد الزلل، وفي نوح عليه السلام معنى الصبر حين يطول الطريق، وفي إبراهيم عليه السلام معنى اليقين حين تقف الدنيا كلها في وجه الإيمان، وفي يوسف عليه السلام معنى العفة والصبر، وفي موسى عليه السلام معنى الثبات أمام الظلم، وفي أيوب عليه السلام معنى الرضا وقت البلاء، وفي يونس عليه السلام معنى العودة الصادقة إلى الله وتعلمنا أن العظمة ليست في أن لا يمر الإنسان بالضعف، بل في أن يعرف كيف يعود بعد الضعف، وأن النجاح الحقيقي ليس أن يمتلك الإنسان الدنيا كلها، بل أن لا يفقد قلبه وهو يسير فيها لقد تغيرت الأزمنة، وتبدلت الحضارات، وتطورت العلوم، لكن حاجة الإنسان بقيت واحدة؛ قلبٌ يبحث عن الطمأنينة، وروحٌ تبحث عن المعنى، ونفسٌ تريد أن تعرف مكانها في هذا الوجود فالعلم يكشف لنا أسرار الكون، لكنه لا يمنح وحده جواب الغاية، والتنمية تبني القدرات، لكنها تحتاج إلى قيم توجهها، والنجاح يرفع الإنسان في أعين الناس، لكن القرب من الله يرفعه في ميزان الحق إن الإنسان الذي يعرف ربه لا يعيش بلا هدف،

ولا يرى الابتلاء نهاية، ولا يجعل النعمة سببًا للغرور، لأنه يعلم أن كل شيء بيد الله، وأن الرحلة الحقيقية ليست رحلة جمع الأشياء، بل رحلة تزكية النفس وإصلاح القلب وفي نهاية هذه الصفحات يبقى السؤال الأهم ليس: كم عرفنا من القصص؟ بل:

ماذا غيّرت هذه المعرفة في داخلنا؟فالمعرفة التي لا تصلح القلب تبقى معلومات، أما حين تتحول إلى عمل وأخلاق ورحمة فهي تصبح نورًا يهدي صاحبه نسأل الله أن يجعل هذه الكلمات تذكرةً للقلوب، وأن يرزقنا إيمانًا صادقًا، وعلمًا نافعًا، وعملاً صالحًا، وأن يجعل آخر طريقنا رضاه ورحمته فمن عرف بداية الخلق، وأدرك رسالة الأنبياء، عرف أن أعظم رحلة في الحياة... هي رحلة العودة إلى الله.

الفهرس

الإهداء

المقدمة

الباب الأول: بداية الخلق ورحلة الإنسان الأولى

الفصل الأول:

قبل أن يُخلق الإنسان... حين كانت البداية بأمر الله

الفصل الثاني:

أوائل الخلق... الملائكة والجن وبداية عالم الغيب

الفصل الثالث:

خلق آدم عليه السلام... بداية الاستخلاف في الأرض

الفصل الرابع:

إبليس والاختبار الأول... بداية الصراع بين الحق والباطل

الفصل الخامس:

نزول آدم إلى الأرض... الإنسان بين الخطأ والتوبة

الباب الثاني: قصص الأنبياء ودروس بناء الإنسان

الفصل السادس:

قابيل وهابيل... أول جريمة في تاريخ البشرية

الفصل السابع:

نوح عليه السلام... الصبر حين يطول الطريق

الفصل الثامن:

إبراهيم عليه السلام... اليقين الذي لا تحرقه النيران

الفصل التاسع:

إبراهيم عليه السلام... الهجرة وبناء بيت التوحيد

الفصل العاشر:

إسماعيل عليه السلام... الطاعة التي صنعت أمة

الفصل الحادي عشر:

يوسف عليه السلام... من البئر إلى التمكين

الفصل الثاني عشر:

يوسف عليه السلام... العفة أمام الفتنة

الفصل الثالث عشر:

يوسف عليه السلام... العفو حين تصبح القوة بين يديه

الفصل الرابع عشر:

أيوب عليه السلام... الصبر حين يتألم الجسد

الفصل الخامس عشر:

يونس عليه السلام... باب الرحمة لا يُغلق

الباب الثالث: مواجهة الحق للباطل

الفصل السادس عشر:

موسى عليه السلام... رسالة في وجه الطغيان

الفصل السابع عشر:

موسى عليه السلام... سحر الوهم أمام حقيقة الله

الفصل الثامن عشر:

موسى عليه السلام... انشقاق البحر وسقوط فرعون

الفصل التاسع عشر:

موسى عليه السلام... بناء الإنسان بعد النجاة

الفصل العشرون:

داود عليه السلام... حين اجتمع الملك والعبادة

الفصل الحادي والعشرون:

سليمان عليه السلام... الملك الذي لم ينسَ المنعم

الباب الرابع: اكتمال الرسالة وهداية البشرية

الفصل الثاني والعشرون:

زكريا ويحيى عليهما السلام... الدعاء وبشارة الأمل

الفصل الثالث والعشرون:

عيسى عليه السلام... الرحمة والمعجزة والرسالة

الفصل الرابع والعشرون:

محمد ﷺ... الرحمة التي أشرقت على العالمين

الفصل الخامس والعشرون:

سيرة النبي ﷺ... بناء الإنسان قبل بناء المجتمع

الفصل السادس والعشرون:

أخلاق النبي ﷺ... كيف تصنع الرسالة إنسانًا

الباب الخامس: بعد النبوة... نماذج من صناعة الحضارة

الفصل السابع والعشرون:

الخلفاء الراشدون... القيادة بالقيم

الفصل الثامن والعشرون:

علماء الأمة... حين أصبح العلم عبادة

الفصل التاسع والعشرون:

الإيمان والعلم... علاقة العقل بالوحي

الفصل الثلاثون:

الإنسان المعاصر... كيف يعود إلى الله في زمن الفتن

الخاتمة

حين يهتَدي القلب إلى الله

- 13 مؤلفاً
- مدربة TOT
- موظفة
- ماجستير
- نائبة دولية
- مديرة مركز آفاق
- 151 كتاباً دولياً
- 386 شهادة
- عضو من منظمات دولية
- عضو المجلس الاستشاري الأسري العراقي
- سفيرة دولية